سـورة الطارق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ قسمان ﴿السَّمَاءِ﴾ قسم، و﴿الطَّارِقِ﴾ قسم، والطارق: النجم، وقد بينه الله تعالى بقوله ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾، واختلف فيه؛ فقيل: هو زحل: الكوكب الذي في السماء السابعة؛ ذكره محمد بن الحسن في تفسيره، وذكر له أخبارا، الله أعلم بصحتها (١)، وقال ابن زيد: إنه الثُّريا (٢)، وعنه أيضا إنه زحل (٣)؛ وقاله الفراء: ابن عباس (٤): هو الجدي، وعنه أيضا وعن علي بن أبي طالب - رضي الله عنهما - والفراء ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾: نجم في السماء السابعة، لا يسكنها غيره من النجوم؛ فإذا أخذت النجوم أمكنتها من السماء، هبط فكان معها، ثم يرجع إلى مكانه من السماء السابعة، وهو زحل، فهو طارق حين ينزل، وطارق حين يصعد (٥)، وحكى الفراء: ثقب الطائر: إذا ارتفع وعلا، وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ قاعدا مع أبي طالب، فانحط نجم، فامتلأت الأرض نورا، ففزع أبو طالب، وقال: أي شيء هذا؟ فقال: « هذا نجم رمي به، وهو آية من آيات الله» فعجب أبو طالب، ونزل ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ (٦)، وروي عن ابن عباس أيضا ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ قال: السماء وما يطرق فيها (٧)، وعن ابن عباس وعطاء (٨) ﴿الثَّاقِبُ﴾: الذي ترمي به الشياطين، قتادة: هو عام في سائر النجوم؛ لأن طلوعها بليل، وكل من أتاك ليلا فهو طارق (٩)، قال:

ومثلكِ حُبْلَى قد طَرقتِ ومرضعًا فألهيتُهَا عن ذي تمائمَ مُغْيلِ

وقال:

ألم تريانِي كُلما جِئتُ طارقًا وَجدت بها طيبًا وإن لم تَطَيَّبِ

فالطارق: النجم، اسم جنس، سمي بذلك لأنه يطرق ليلا، ومنه الحديث: نهى النبي ﷺ أن

---

(١) شكّ المصنف يدل على أنها أخبار لا تصح ، والله أعلم .

(٢، ٣) كذا عند الطبري (٣٠/ ١٥١) في تفسيره بسند صحيح إليه .

(٤، ٥) وهذا معنى بعيد أيضًا وقد اختار ابن كثير وغيره أنه كل نجم يطرق بالليل ، وانظر : تفسير ابن كثير (٨/ ٢٩٢) .

(٦) واه الإسناد : أبو صالح ضعيف جدًا ، وذكره الواحدى (ص٣٨٩) في أسباب النزول دون سند . ورواه السيوطي (ص٤٥٣) في اللباب من طريق الطبراني بسند فيه جويبر وهو هالك.

(٧) ضعيف إلى ابن عباس : الطبري (٣٠/ ١٥٠) في تفسيره من طريق العَوْفيين .

(٨) انظر ابن كثير (٨/ ٢٩٢) في تفسيره .

(٩) صحيح إليه : الطبري (٣٠/ ١٥٠) في تفسيره .

يطرق المسافر أهله ليلا، كي تستحد المغيبة، وتمتشط الشعثة [١]، والعرب تسمي كل قاصد في الليل طارقا، يقال: طرق فلان إذا جاء بليل، وقد طرق يطرق طروقا، فهو طارق، ولابن الرومي:

يا راقدَ الليل مَسْرورا بأوله إن الحوادثَ قد يَطرُقن أسْحارا
لا تفرحنَّ بليلٍ طاب أولُهُ فَربَّ آخرِ ليل أجـج النَّـــارا

وفي الصحاح: والطارق: النجم الذي يقال له كوكب الصبح، ومنه قول هند:

نحنُ بناتُ طارق نمشي على النَّمارقِ [٢]

أي: إن أبانا في الشرف كالنجم المضيء، الماوردي: وأصل الطرق: الدق، ومنه سميت المطرقة، فسمي قاصد الليل طارقا، لاحتياجه في الوصول إلى الدق، وقال قوم: إنه قد يكون نهارا، والعرب تقول؛ أتيتك اليوم طرقتين: أي مرتين، ومنه قوله ﷺ « أعوذ بك من شر طوارق الليل والنهار، إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن » [٣]، وقال جرير في الطروق:

طَرَقَتْكَ صَائدةُ القلوب وليس ذا حين الزيارةِ فارجعي بِسلامِ

ثم بين فـقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ والثاقب: المضيء، ومنه ﴿شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠] يقال: ثَقُبَ يَثْقُبُ ثُقُوبا وثقابة: إذا أضاء، وثقوبه: ضـوؤه، والعرب تقول: أثقب نارك؛ أي أضئها، قال:

أذاع به في النَّاس حتى كَأنه بعلياء نارٌ أوقدت بثَقُوبِ

الثُّقوب: ما تشـعل به النار من دقاق العيدان، وقال مجـاهد: الثاقب: المتوهج [٤]؛ القشيري والمعظم على أن الطارق والثاقب اسم جنس أريد به الـعموم، كما ذكـرنا عن مجاهد، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ تفخيمـا لشأن هذا المقسم به [٥]، وقال سفيـان: كل ما في القرآن ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾؟ فقد أخبره به، وكل شيء قال فيه ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ [الأحزاب: ٦٣]: لم يخبره به [٦].

﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤ ﴾

قال قتـادة: حفظة يحفظون عليك رزقك وعـملك وأجلك، وعنه أيضا قال: قرينه يحـفظ عليه عملـه: من خير أو شـر، وهذا هو جواب الـقسم، وقيـل: الجواب ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ في قول الترمذي: مـحمد بن علي، و﴿إِن﴾: مخففـة من الثقيلة، و﴿مَّا﴾: مؤكدة، أي إن كل نفس لـعليها

---

(١) متفق عليه: البخاري (٥٢٤٣، ٥٢٤٤) في النكاح، ومسلم (٧١٥) في الإمارة، عن جابر ـ رضي الله عنه، والشعثة: من تلبد شعرها. اللسان (شعث).

(٢) هذا من قول هند بنت عتبة، انظر سيرة ابن هشام (٣/ ٥٠).

(٣) حسن بشواهده: رواه مالك (١٠) في الشعر مرسلاً، ورواه أحمد (٣/ ٤١٩) موصولاً في المسند، وابن السنى (٦٣١) ـ بترقيمي، عن عبد الرحمن بن خنبش ـ رضي الله عنه.
وعزاه الهيثمي (١٠/ ١٢٦، ١٢٧) في المجمع للطبراني من حديث أبي مالك الأشعري، وبسنده رواه الطبراني في الصغير، عن ابن مسعود كما في المجمع (١٠/ ١٢٧، ١٢٨) وقال: وفيه من لم أعرفه.

(٤، ٥) الدر المنثور (٦/ ٥٦٠) للسيوطي وعزاه لعبد بن حميد.

(٦) سبق تخريجه.

حافظ، وقيل: المعنى إن كل نفس إلا عليها حافظ: يحفظها من الآفات، حتى يسلمها إلى القدر، قال الفراء: الحافظ من الله، يحفظها حتى يسلمها إلى المقادير، وقاله الكلبي، وقال أبو أمامة: قال النبي ﷺ: «وكل بالمؤمن مائة وستون ملكا يذبون عنه ما لم يقدر عليه من ذلك البصر، سبعة أملاك يذبون عنه، كما يذب عن قصعة العسل الذباب، ولو وكل العبد إلى نفسه طرفة عين لاختطفته الشياطين» (١)، وقراءة ابن عامر وعاصم وحمزة ﴿لَمَّا﴾ بتشديد الميم، أي ما كل نفس إلا عليها حافظ، وهي لغة هذيل: يقول قائلهم: نشدتك لما قمت، الباقون بالتخفيف (٢)، على أنها زائدة مؤكدة، كما ذكرنا، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]، على ما تقدم، وقيل: الحافظ هو الله سبحانه؛ فلولا حفظه لها لم تبق، وقيل: الحافظ عليه عقله، يرشده إلى مصالحه، ويكفه عن مضاره.

قلت: العقل وغيره وسائط، والحافظ في الحقيقة هو الله جل وعز؛ قال الله عز وجل ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾ [يوسف: ٦٥]، وقال: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ﴾ [الأنبياء: ٤٢]، وما كان مثله.

﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ﴾ أي ابن آدم ﴿مِمَّ خُلِقَ﴾ وجه الاتصال بما قبله توصية الإنسان بالنظر في أول أمره، وسنته الأولى، حتى يعلم أن من أنشأه قادر على إعادته وجزائه؛ فيعمل ليوم الإعادة والجزاء، ولا يملي على حافظه إلا ما يسره في عاقبة أمره، و﴿مِمَّ خُلِقَ﴾؟ استفهام؛ أي من أي شيء خلق؟ ثم قال ﴿خُلِقَ﴾ وهو جواب الاستفهام ﴿مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ أي من المني، والدفق: صب الماء، دفقت الماء أدفقه دفقا: صببته، فهو ماء دافق، أي مدفوق، كما قالوا: سر كاتم: أي مكتوم؛ لأنه من قولك: دفق الماء، على ما لم يسم فاعله، ولا يقال: دفق الماء، ويقال: دفق الله روحه: إذا دعي عليه بالموت، قال الفراء والأخفش ﴿مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ أي مصبوب في الرحم، الزجاج: من ماء ذي اندفاق، يقال: دارع وفارس ونابل؛ أي ذو فرس، ودرع، ونبل، وهذا مذهب سيبويه، فالدافق هو المندفق بشدة قوته، وأراد ماءين: ماء الرجل وماء المرأة؛ لأن الإنسان مخلوق منهما، لكن جعلهما ماءً واحدا لامتزاجهما، وعن عكرمة عن ابن عباس (٣) ﴿دَافِقٍ﴾ لزج، ﴿يَخْرُجُ﴾ أي هذا الماء ﴿مِن بَيْنِ الصُّلْبِ﴾ أي الظهر، وفيه لغات أربع: صلب، وصلب - وقرئ بهما - وصلب بفتح اللام، وصالب على وزن قالب؛ ومنه قول العباس:

تُنْقَلُ من صَالَبٍ إلى رَحِمِ

﴿وَالتَّرَائِبِ﴾ أي: الصدر، الواحدة: تريبة؛ وهي موضع القلادة من الصدر، قال:

مُهفهفةٌ بيضاءُ غيرَ مُفاضةٍ تَرائبها مَصقولةٌ كالسجنجلِ

---

(١) ضعيف: الهيثمي (٧/ ٢٠٩) في المجمع وقال: رواه الطبراني وفيه عفير بن معدان وهو ضعيف.

(٢) قراءة متواترة: كما في تقريب النشر (ص١٢٥).

(٣) وهو معنى صحيح.

والصلب من الرجل، والترائب من المرأة، قال ابن عباس: الترائب: موضع القلادة [١]، وعنه: ما بين ثدييها [٢]؛ وقاله عكرمة [٣]، وروي عنه: يعني ترائب المرأة: اليدين والرجلين والعينين [٤]؛ وبه قال الضحاك [٥]، وقال سعيد بن جبير: هو الجيد [٦]؛ مجاهد: هو ما بين المنكبين والصدر، عنه: الصدر [٧]، وعنه: التراقي، وعن ابن جبير عن ابن عباس: الترائب: أربعة أضلاع من هذا الجانب[٨]، وحكى الزجاج: أن الترائب أربعة أضلاع مِنَ يمنة الصدر، وأربعة أضلاع من يسرة الصدر، وقال معمر بن أبي حبيبة المدني: الترائب عصارة القلب؛ ومنها يكون الولد، والمشهور من كلام العرب: أنها عظام الصدر والنحر، وقال دريد بن الصمة:

فإن تدبروا نأخذكُم في ظُهوركم وإن تَقبلوا نأخذكُم في التَّرائبِ

وقال آخر:

وبدت كأن تَرائبا مِنْ نَحْرها جَمْرُ الغَضى في ساعدٍ تَتوقدُ

وقال آخر:

والزعفران على ترائبها شرق به اللبات والنحر

وعن عكرمة: الترائب: الصدر [٩]؛ ثم أنشد:

نِظامُ دُرٍ على ترائبها

وقال ذو الرمة:

ضَرجن البرود عن ترائب حُرة

أي شققن، ويروي « ضَـرَحْنَ » بالخاء، أي: ألقين، وفي الصحاح: والتريبة: واحدة الترائب، وهي عظام الصدر؛ ما بين الترقوة والثندوة، قال الشاعر:

أشرفَ ثَدياها على التَّرِيبِ

وقال المثقب العبدي:

ومن ذهب يُسَنّ على تَريب كلونِ العَاجِ ليسَ بذي غُضونِ

عن غير الجوهري: الثندوة للرجل بمنزلة الثدي للمرأة، وقال الأصمعي: مغرز الثدي، وقال ابن

---

(١) ضعيف : هذه رواية الضحاك والعوفى عنه كما في تفسير ابن كثير (٨/ ٢٩٣) ، وانظر: تفسير الطبري (٣٠/ ١٥٢) .

(٢) ضعيف : منقطع بين ابن أبي طلحة وابن عباس كما في تفسير الطبري (٣٠/ ١٥٣).

(٣) حسن : الطبري (٣٠/ ١٥٣) في تفسيره .

(٤) تفسير ابن كثير (٨/ ٢٩٣) .

(٥) انظر: تفسير الطبري (٣٠/ ١٥٣) بسند ضعيف .

(٦) انظر: تفسير ابن كثير (٨/ ٢٩٣) .

(٧) صحيح إلى مجاهد : رواه الطبري (٣٠/ ١٥٣) بسند فيه ثوير بن أبي فاختة وهو ضعيف ثم رواه بسند آخر صحيح إليه هناك .

(٨) كذا في تفسير الطبري (٣٠/ ١٥٤) عن سعيد ، وعن ابن عباس كما في الدر المنثور (٦/ ٥٦١) .

(٩) تفسير ابن كثير (٨/ ٢٩٣) ، وفتح القدير (٧/ ٥٠٣) للشوكاني، والسيوطي (٦/ ٥٦٠) في الدر المنثور وعزاه لعبد بن حميد .

السكيت: هي اللحم الذي حول الثدي؛ إذا ضممت أولها همزت، وإذا فتحت لم تهمز، وفي التفسير: يخلق من ماء الرجل الذي يخرج من صلبه العظم والعصب، ومن ماء المرأة الذي يخرج من ترائبها اللحم والدم؛ وقاله الأعمش، وقد تقدم مرفوعا في أول سورة «آل عمران» (١)، والحمد لله وفي الحجرات ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ [الحجر: ١٣] وقد تقدم، وقيل: إن ماء الرجل ينزل من الدماغ، ثم يجتمع في الأنثيين، وهذا لا يعارض قوله: ﴿مِن بَيْنِ الصُّلْبِ﴾؛ لأنه إن نزل من الدماغ، فإنما يمر بين الصلب والترائب، وقال قتادة: المعنى ويخرج من صلب الرجل وترائب المرأة (٢)، وحكى الفراء أن مثل هذا يأتي عن العرب؛ وعليه فيكون معنى من بين الصلب: من الصلب، وقال الحسن: المعنى: يخرج من صلب الرجل وترائب الرجل، ومن صلب المرأة وترائب المرأة، ثم إنا نعلم أن النطفة من جميع أجزاء البدن؛ ولذلك يشبه الرجل والديه كثيرا، وهذه الحكمة في غسل جميع الجسد من خروج المني، وأيضا المكثر من الجماع يجد وجعا في ظهره وصلبه؛ وليس ذلك إلا لخلو صلبه عما كان محتبسا من الماء، وروى إسماعيل عن أهل مكة « يخرج من بين الصُّلُب » بضم اللام، ورويت عن عيسى الثقفي، حكاه المهدوي وقال: من جعل المني يخرج من بين صلب الرجل وترائبه، فالضمير في ﴿يَخْرُجُ﴾ للماء، ومن جعله من بين صلب الرجل وترائب المرأة، فالضمير للإنسان، وقرئ: « الصَّلَب » بفتح الصاد واللام، وفيه أربع لغات: صلب وصلب وصلب وصالب، قال العجاج:

في صَلَبِ مثل العِنان المؤدَمِ

وفي مدح النبي ﷺ:

تُنْقَل من صَالَب إلى رَحِمِ

الأبيات مشهورة معروفة، ﴿إِنَّهُ﴾ أي إن الله جل ثناؤه ﴿عَلَىٰ رَجْعِهِ﴾ أي: على رد الماء في الإحليل، ﴿لَقَادِرٌ﴾ كذا قاله مجاهد والضحاك(٣)، وعنهما أيضا أن المعنى: إنه على رد الماء في الصلب؛ وقاله عكرمة، وعن الضحاك أيضا أن المعنى: إنه على رد الإنسان ماء كما كان لقادر (٤)، وعنه أيضا أن المعنى: إنه على رد الإنسان من الكبر إلى الشباب، ومن الشباب إلى الكبر، لقادر، وكذا في المهدوي، وفي الماوردي والثعلبي: إلى الصبا، ومن الصبا إلى النطفة، وقال ابن زيد: إنه على حبس ذلك الماء حتى لا يخرج، لقادر، وقال ابن عباس وقتادة والحسن وعكرمة أيضا: إنه على رد الإنسان بعد الموت لقادر، وهو اختيار الطبري (٥)، الثعلبي: وهو الأقوى؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩] قال الماوردي: ويحتمل أنه على أن يعيده إلى الدنيا بعد بعثه في الآخرة؛ لأن

---

(١) عند الآية (٦).

(٢) صحيح إلى قتادة: عزاه السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٥٦١) لعبد الرزاق وابن المنذر وعبد بن حميد.

(٣) ضعيف إلى مجاهد: فيه ليث بن أبي سليم وهو ضعيف تفسير الطبري (٣٠/ ١٥٥) وفيه انقطاع بين الطبري وشيخه الحسين في رواية الضحاك.

(٤) الطبري (٣٠/ ١٥٥) في تفسيره.

(٥) انظر: السابق وهو صحيح إلى قتادة.

الكفار يسألون اللّه تعالى فيها الرجعة.

﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝ ﴾

فيه مسألتان :

الأولى : العامل في ﴿يَوْمَ﴾ وفي قول من جعل المعنى: إنه على بعث الإنسان قوله: ﴿لَقَادِرٌ﴾، ولا يعمل فيه ﴿رَجْعِهِ﴾ لما فيه من التفرقة بين الصلة والموصول بخبر ﴿إِنَّ﴾، وعلى الأقوال الأخر التي في ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾، يكون العامل في ﴿يَوْمَ﴾ فعل مضمر، ولا يعمل فيه ﴿لَقَادِرٌ﴾؛ لأن المراد في الدنيا، و﴿تُبْلَى﴾ أي: تمتحن وتختبر؛ قال أبو الغول الطهوي:

ولا تُبلى بَسالتُهُم وإن هُم صَلوا بالحرب حِينا بعدَ حِين

ويروى تبلى بسالتهم، فمن رواه ﴿تُبْلَى﴾ - بضم التاء - جعله من الاختبار؛ وتكون البسالة على هذه الرواية: الكراهة؛ كأنه قال: لا يعرف لهم فيها كراهة، و﴿تُبْلَى﴾ تعرف، وقال الراجز:

قَد كُنتَ قبل اليومِ تَزدريني فاليومَ أبلوك وتبتليني

أي أعرفك وتعرفني، ومن رواه « تَبْلَى » بفتح التاء - فالمعنى: أنهم لا يضعفون عن الحرب وإن تكررت عليهم زمانا بعد زمان، وذلك أن الأمور الشداد إذا تكررت على الإنسان هدته وأضعفته، وقيل: ﴿تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾: أي تخرج مخبآتها وتظهر، وهو كل ما كان استسره الإنسان من خير أو شر، وأضمره من إيمان أو كفر؛ كما قال الأحوص:

سيبقى لها في مُضْمَرِ القَلْبِ والحشا سَرِيرةُ وُدٍّ يوم تُبلى السَّرائِرُ

الثانية : روي عن النبي ﷺ أنه قال: « ائتمن اللّه تعالى خلقه على أربع: على الصلاة، والصوم، والزكاة، والغسل، وهي السرائر التي يختبرها اللّه عز وجل يوم القيامة » [(١)]، ذكره المهدوي، وقال ابن عمر: قال النبي ﷺ: « ثلاث من حافظ عليها فهو ولي اللّه حقا، ومن اختانهن فهو عدو اللّه حقا: الصلاة؛ والصوم، والغسل من الجنابة » [(٢)] ذكره الثعلبي، وذكر الماوردي عن زيد ابن أسلم قال: قال رسول اللّه ﷺ: « الأمانة ثلاث: الصلاة، والصوم، والجنابة، استأمن اللّه عز وجل ابن آدم على الصلاة؛ فإن شاء قال صليت ولم يصل، استأمن اللّه عز وجل ابن آدم على الصوم، فإن شاء قال صمت ولم يصم، استأمن اللّه عز وجل ابن آدم على الجنابة؛ فإن شاء قال اغتسلت ولم يغتسل، اقرؤوا إن شئتم: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ » [(٣)]، وذكره الثعلبي عن عطاء قوله، وقال مالك في رواية أشهب عنه، وسألته عن قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾: أبلغك أن الوضوء من

---

(١) موضوع : حكم عليه الألباني (٣٥٩٤) في ضعيف الجامع بالوضع ولفظه : «ضمن الله خلقه أربعًا» .

(٢) ضعيف : الطبراني (٩/ ٨) في الأوسط عن أنس ـ رضي الله عنه ، وضعفه الألباني (٢٥٤٢) في ضعيف الجامع.

(٣) معضل : وذكره الماوردي (٦/ ٢٤٨) في تفسيره ، وذكره السيوطي (٣/ ٢٢٦) في الدر المنثور .

السرائر؟ قال: قد بلغني ذلك فيما يقول الناس، فأما حديث أحدث به فلا، والصلاة من السرائر، والصيام من السرائر، إن شاء قال صليت ولم يصل، ومن السرائر ما في القلوب؛ يجزي الله به العباد، قال ابن العربي: قال ابن مسعود: يغفر للشهيد إلا الأمانة، والوضوء من الأمانة، والصلاة والزكاة من الأمانة، والوديعة من الأمانة؛ وأشد ذلك الوديعة؛ تمثل له على هيئتها يوم أخذها؛ فيرمي بها في قعر جهنم، فيقال له: أخرجها، فيتبعها فيجعلها في عنقه، فإذا رجا أن يخرج بها زلت منه، فيتبعها؛ فهو كذلك دهر الداهرين، وقال أبي بن كعب: من الأمانة أن ائتمنت المرأة على فرجها(١)، قال أشهب: قال لي سفيان: في الحيضة والحمل، إن قالت: لم أحض وأنا حامل صدقت، ما لم تأت بما يعرف فيه أنها كاذبة، وفي الحديث: «غسل الجنابة من الأمانة»(٢)، وقال ابن عمر: يبدي الله يوم القيامة كل سر خفي، فيكون زينا في الوجوه، وشينا في الوجوه، والله عالم بكل شيء، ولكن يظهر غلامات الملائكة والمؤمنين.

﴿ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُ﴾ أي: للإنسان ﴿مِن قُوَّةٍ﴾ أي: منعة تمنعه، ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾ ينصره مما نزل به، وعن عكرمة ﴿فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ قال: هؤلاء الملوك، ما لهم يوم القيامة من قوة ولا ناصر، وقال سفيان: القوة: العشيرة، والناصر: الحليف، وقيل: ﴿فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ﴾ في بدنه، ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾ من غيره يمتنع به من الله، وهو معنى قول قتادة(٣).

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ أي: ذات المطر، ترجع كل سنة بمطر بعد مطر، كذا قاله عامة المفسرين، وقال أهل اللغة: الرجع: المطر، وأنشدوا للمتنخل يصف سيفا شبهه بالماء:

أبيضُ كالرجعِ رَسُوبٌ إذا ما ثَاخَ في مُحتفِلٍ يَختلي

ثاخت قدمه في الوحل تثوخ وتثيخ: خاضت وغابت فيه؛ قاله الجوهري، قال الخليل: الرجع: المطر نفسه، والرجع أيضا: نبات الربيع، وقيل ﴿ذَاتِ الرَّجْعِ﴾، أي ذات النفع، وقد يسمى المطر أيضا أوبا، كما يسمى رجعا، قال:

رَبَّاءُ شَمَّاءُ لا يأوي لقُلتها إلا السَّحابُ وإلا الأوبُ والسَّيلُ

وقال عبد الرحمن بن زيد: الشمس والقمر والنجوم يرجعن في السماء؛ تطلع من ناحية وتغيب في أخرى(٤)، وقيل: ذات الملائكة؛ لرجوعهم إليها بأعمال العباد، وهذا قسم، ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ

(١) حسن: الحاكم (٢/ ٤٥٨) في المستدرك وسكت عنه.
(٢) ضعيف: ضعفه الألباني (٣٧) في ضعيف أبي داود، وفي الضعيفة (١/ ٣٨٠).
(٣) صحيح إلى قتادة: الطبري (٣٠/ ١٥٦) في تفسيره.
(٤) حسن: الطبري (٣٠/ ١٥٧) في تفسيره.

﴿الصَّدْعِ﴾ قسم آخر؛ أي : تتصدع عن النبات والشجر والثمار والأنهار؛ نظيره: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا﴾ [عبس: ٢٦] الآية، والصدع: بمعنى الشق؛ لأنه يصدع الأرض، فتنصدع به، وكأنه قال: والأرض ذات النبات؛ لأن النبات صادع للأرض، وقال مجاهد: والأرض ذات الطرق التي تصدعها المشاة، وقيل: ذات الحرث، لأنه يصدعها، وقيل: ذات الأموات: لانصداعها عنهم للنشور، ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ على هذا وقع القسم، أي: إن القرآن يفصل بين الحق والباطل، وقد تقدم في مقدمة الكتاب ما رواه الحارث عن علي رضي اللّه عنه قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: « كتاب فيه خبر ما قبلكم وحكم ما بعدكم، هو الفصل، ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه اللّه، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله اللّه» [(١)] . وقيل: المراد بالقول الفصل: ما تقدم من الوعيد في هذه السورة، من قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ . يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾، ﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ أي: ليس القرآن بالباطل واللعب، والهزل: ضد الجد ، وقد هزل يهزل، قال الكميت:

يُجَد بنا في كُلِّ يومٍ ونهزل

﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: إن أعداء اللّه ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ أي: يمكرون بمحمد ﷺ وأصحابه مكرا، ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ أي أجازيهم جزاء كيدهم، وقيل: هو ما أوقع اللّه بهم يوم بدر من القتل والأسر، وقيل: كيد اللّه: استدراجهم من حيث لا يعلمون، وقد مضى هذا المعنى في أول البقرة ، عند قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥] ، مستوفى.

﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ﴾ أي أخرهم، ولا تسأل اللّه تعجيل إهلاكهم، وارض بما يدبره في أمورهم، ثم نسخت بآية السيف ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] ، ﴿أَمْهِلْهُمْ﴾ تأكيد، ومهل وأمهل: بمعنى؛ مثل نَزْل وأَنْزَلَ، وأمهله: أنظره، ومهله تمهيلا، والاسم: المهلة، والاستمهال: الاستنظار، وتمهل في أمره، أي اتأد، واتمهل امتهلالا: أي اعتدل وانتصب، والامتهلال أيضا: سكون وفتور، ويقال: مهلا يا فلان؛ أي رفقا وسكونا، ﴿رُوَيْدًا﴾ أي: قريبا؛ عن ابن عباس [(٢)] . قتادة: قليلا [(٣)]، والتقدير: أمهلهم إمهالا قليلا، والرويد في كلام العرب: تصغير رود، وكذا قاله أبو عبيد، وأنشد:

كأنها ثَمِلٌ يمشي على رودِ

أي على مهل، وتفسير ﴿رُوَيْدًا﴾: مهلا، وتفسير رويدك: أمهل؛ لأن الكاف إنما تدخله إذا كان بمعنى أفعل دون غيره، وإنما حركت الدال لالتقاء الساكنين، فنصب نصب المصادر، وهو مصغر مأمور به؛ لأنه تصغير الترخيم من إرواد؛ وهو مصدر أرود يُرْوِد، وله أربعة أوجه: اسم للفعل، وصفة، وحال، ومصدر؛ فالاسم نحو قولك: رويد عمرا؛ أي أرود عمرا، بمعنى أمهله، والصفة نحو

---

(١) ضعيف : سبق تضعيفه في مقدمة الكتاب .

(٢) منقطع : بين علي بن أبي طلحة ، وابن عباس ـ رضي الله عنهما ، وتفسير الطبري (٣٠/ ١٦٠) .

(٣) صحيح إلى قتادة : الطبري (٣٠/ ١٦٠) في تفسيره .

قولك: ساروا سيـراً رويداً، والحال نحو قولك: سار القوم رويداً؛ لما اتصل بالمعرفـة صار حالا لها، والمصدر نحو قولك: رويد عمرو بـالإضافة؛ كقوله تعالى: ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤]، قال جميعه الجوهري، والذي في الآية من هذه الوجـوه أن يكون نعتا للمـصدر؛ أي: إمهـالا رويدا، ويجوز أن يكون للحال؛ أي: أمهلهم غير مستعجل لهم العذاب.

ختمت السورة.

obeikandl.com

سـورة الأعلى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ﴾

يستحب للقارئ إذا قرأ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ أن يقول عقبه: سبحان ربي الأعلى؛ قاله النبي ﷺ، وقاله جماعة من الصحابة والتابعين؛ على ما يأتي.

وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال: إن لله تعالى ملكا يقال له: حزقيائيل، له ثمانية عشر ألف جناح، ما بين الجناح إلى الجناح مسيرة خمسمائة عام، فخطر له خاطر هل تقدر أن تبصر العرش جميعه؟ فزاده الله أجنحة مثلها، فكان له ستة وثلاثون ألف جناح، ما بين الجناح إلى الجناح خمسمائة عام، ثم أوحى الله إليه: أيها الملك، أن طر، فطار مقدار عشرين ألف سنة؛ فلم يبلغ رأس قائمة من قوائم العرش، ثم ضاعف الله له في الأجنحة والقوة، وأمره أن يطير، فطار مقدار ثلاثين ألف سنة أخرى، فلم يصل أيضا؛ فأوحى الله إليه أيها الملك، لو طرت إلى نفخ الصور مع أجنحتك وقوتك لم تبلغ ساق عرشي، فقال الملك: سبحان ربي الأعلى؛ فأنزل الله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾، فقال النبي ﷺ: «اجعلوها في سجودكم»[1]، ذكره الثعلبي في كتاب العرائس له.

وقال ابن عباس والسدي: معنى ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ أي: عظم ربك الأعلى، والاسم صلة، قصد بها تعظيم المسمى؛ كما قال لبيد:

إلى الحولِ ثم اسمُ السَّلامِ عليكما

وقيل: نزه ربك عن السوء، وعما يقول فيه الملحدون، وذكر الطبري[2] أن المعنى نزه اسم ربك عن أن تسمي به أحدا سواه، وقيل: نزه تسمية ربك وذكرك إياه، أن تذكره إلا وأنت خاشع معظم، ولذكره محترم، وجعلوا الاسم بمعنى التسمية، والأولى أن يكون الاسم هو المسمى، روى نافع عن ابن عمر قال: لا تقل: علىً اسمُ اللّه؛ فإن اسم اللّه هو الأعلى.

وروى أبو صالح عن ابن عباس: صلّ بأمر ربك الأعلى، قال: وهو أن تقول: سبحان ربك الأعلى.

وروي عن علي رضي الله عنه، وابن عباس وابن عمرو وابن الزبير وأبي موسى وعبدالله بن مسعود رضي الله عنهم: أنهم كانوا إذا افتتحوا قراءة هذه السورة قالوا: سبحان ربي الأعلى؛ امتثالا

---

(١) عزاه السيوطي (٦/ ٥٦٥) لابن مردويه عن أبي هريرة، وصححه الألباني (٤٧٦٦) في صحيح الجامع.

(٢) انظر تفسير الطبري (٣٠/ ١٦٢).

لأمره في ابتدائها [١] ، فيختـار الاقتداء بهم في قراءتهم؛ لا أن سبحان ربـي الأعلى من القرآن؛ كما قاله بعض أهل الزيغ، وقـيل: إنها في قراءة أُبيّ : « سبـحان ربي الأعلى»، وكان ابن عمـر يقرؤها كذلك، وفي الحديث: كان رسول اللّه ﷺ إذا قرأها قال: «سبحان ربي الأعلى»[٢] .

قال أبو بكر الأنباري: حدثني مـحمد بن شهريار، قال: حدثنا حـسين بن الأسود، قال: حدثنا عبدالرحمن بن أبي حـماد قال: حدثنا عيسى بن عمر، عن أبيـه، قال: قرأ علي بن أبي طالب عليه السلام في الصلاة ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾، فـقال: سبحان ربي الأعلى؛ فلما انقضت الصلاة قيل له: يا أمير المؤمنين، أتزيد هذا في القرآن؟ قال: ما هو؟ قـالوا: سبحان ربي الأعلى، قال: لا، إنما أمرنا بشيء فقلته، وعن عقبة بن عامر الجهني قال: لما نزلت ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ قال رسول اللّه ﷺ : « اجعلوها في سـجودكم »[٣] ، وهذا كله يدل على أن الاسم هو المسمى؛ لأنهم لم يقـولوا: سبحان اسم ربى الأعلى، وقيل: إن أول من قال :«سـبحان ربي الأعلى» ميكائيل عليـه السلام، وقال النبي ﷺ لجبريل: « يا جبريل أخبرني بثواب من قال: سبحان ربي الأعلى في صلاته أو في غير صلاته»، فقال: يا مـحمد، ما من مـؤمن ولا مؤمنة يقولها في سـجوده أو في غير سجـوده، إلا كانت له في ميزانه أثقل من العرش والكرسي وجبال الدنيـا، ويقول اللّه تعالى: صدق عبدي، أنا فوق كل شيء، وليس فوقي شيء، اشهـدوا يا ملائكتي أني قد غفرت له وأدخلته الجنة، فـإذا مات زاره ميكائيل كل يوم، فإذا كان يوم الـقيامة حمله علـى جناحه، فأوقفه بين يدي الـلّه تعالى، فيقول: يـا رب شفعني فيه، فيقول : قد شفعتك فيه، فاذهب به إلى الجنة »[٤] ، وقال الحسن: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ أي: صل لربك الأعلى[٥] ، وقيل: أي: صل بأسـماء اللّه، لا كمـا يصلي المشركون بالمكاء والتـصدية، وقيل: ارفع صوتك بذكر ربك.

قال جرير:

قَبَّحَ الإلهُ وجوهَ تَغْلب كلما سَبَّحَ الحجيجُ وكَبروا تَكْبيرا

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝ ﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ قد تقدم معنى التسوية في الانفطار وغيرها، أي سوى ما خلق، فلم يكن في خلقه تثبـيج، وقال الزجاج: أي [خلق الإنسان سويا] ، ومعنى «سوى»: عـدل قامته، وعن ابن عباس: حسن مـا خلق، وقال الضحاك: خلق آدم فسوى خلقـه، وقيل: خلق في أصلاب الآباء، وسوى في أرحام الأمهـات، وقيل: خلق الأجساد، فسوى الأفـهام، وقيل: أي خلق الإنسان وهيأه للتكليـف، ﴿الَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ قرأ علي رضي اللّه عـنه السلـمـي والكـسائي «قَدَر» مخـففـة

---

(١) انظر: الدر المنثور (٦/ ٥٦٦، ٥٦٧) للسيوطي .

(٢) الطبري (٣٠/ ١٦٢) في تفسيره .

(٣) انظر: الدر المنثور (٦/ ٥٦٦، ٥٦٧) .

(٤) ضعيف جدًا : وقد سبق .

(٥) انظر: تفسير الحسن البصري (٢/ ٤١١) .

الدال [١]، وشدد الباقون، وهما بمعنى واحد، أي قدر ووفق لكل شكل شكله، ﴿فَهَدَىٰ﴾ أي أرشد، قال مـجاهد: قدر الشـقاوة والسعـادة، وهدى للرشد والضلالـة، وعنه قال: هدى الإنسان للسـعادة والشقاوة، وهدى الأنعام لمراعيها [٢]، وقيل: قدر أقواتهم وأرزاقهم، وهداهم لمعاشهم إن كانوا إنسا، ولمراعيهم إن كانوا وحشا، وروي عن ابن عباس والسدي ومقاتل والكلبي في قوله: ﴿فَهَدَىٰ﴾ قالوا: عَرّف خلقه كيف يأتي الذكـر الأنثى؛ كما قال في طه ﴿الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] أي الذكر للأنثى، وقال عطاء: جعل لكل دابة ما يصلحـها، وهداها له، وقيل: خلق المنافع في الأشياء، وهدى الإنسان لوجه استخراجها منها، وقيل: ﴿قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ قدر لكل حيوان ما يصلحه، فهداه إليه، وعرفه وجه الانتفاع به، يحكى أن الأفعى إذا أتت عليهـا ألف سنة عميت، وقد ألهمها اللّه أن مسح العين بورق الرازيانج [٣] الغض يرد إليها بصـرها؛ فربما كانت في برية بينها وبين الريف مـسيرة أيام، فتطوي تلك المسافة على طولها وعلى عماها، حـتى تهجم في بعض البساتين على شجرة الرازيانج لا تخطئـها، فتـحك بها عـينها وترجع باصـرة بإذن اللّه تعالى، وهـدايات الإنسان إلى ما لا يـحد من مصالحه، وما لا يحـصر من حوائجه، في أغذيته وأدويته، وفي أبواب دنياه ودينـه، وإلهامات البهائم والطيور وهوام الأرض بـاب واسع، وشوط بطين [٤]، لا يحيط به وصف واصـف؛ فسبـحان ربي الأعلى، وقال السـدي: قدر مدة الجنين في الرحم تسعـة أشهر، وأقل وأكثـر، ثم هداه للخروج من الرحم، وقال الفراء: أي قدر، فـهدى وأضل؛ فاكتفى بذكر أحدهمـا؛ كقوله تعالى: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]، ويحتمل أن يكون بمعنى دعـا إلى الإيمان؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، أي لتدعو، وقـد دعا الكل إلى الإيمان، وقيل: ﴿فَهَدَىٰ﴾ أي دلهم بأفعاله على توحيـده، وكونه عالما قادرا، ولا خـلاف أن من شدد الدال من ﴿قَدَّرَ﴾ أنه من التقـدير؛ كقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، ومن خفف فيحتـمل أن يكون من التقدير فيكونان بمعنى، ويحتمل أن يكون من القدر والملك؛ أي ملك الأشياء، وهدى من يشاء.

قلت: وسمعت بعض أشياخي يقول: الذي خلق فسوى وقدر فهدى، هو تفسير العلو الذي يليق بجلال اللّه سبحانه على جميع مخلوقاته.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ﴾ أي النبات والكلأ الأخضر، قال الشاعر:

وقد ينبتُ المرعَى على دِمَنِ الثَّرى وَتَبْقَى حزازاتُ النُّفُوسِ كما هيا

﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ﴾ الغـثاء: مـا يقذف به السـيل على جوانب الوادي من الحـشيش والنـبات والقماش [٥]، وكذلك الغُثَّاء بالتشديد، والجمع: الأغـثاء. قتادة: الغثاء: الشيء اليابس [٦]، ويقال

---

(١) قراءة سبعية متواترة: كما في تقريب النشر (ص ١٨٨) .

(٢) صحيح إلى مجاهد: الطبري (٣٠ / ١٦٢) في تفسيره .

(٣) الرازيانج: شجرة يسميها أهل اليمن: السمار .

(٤) شوط بطين: بعيد .

(٥) القماش: هو ما كان على وجه الأرض من دقت الأشياء حتى يقال لرذالة الناس: قماش . اللسان «قمش».

(٦) صحيح إلى قتادة: الطبري (٣٠/ ١٦٣) في تفسيره .

للبقل والحشيش إذا تحطم ويبس: غثاء وهشيم، وكذلك للذي يكون حول الماء من القماش غثاء؛ كما قال:

كأن طَمِيةَ المُجيمرِ غُدوة مِنَ السَّيل والأغثاءِ (١) فَلكةُ مِغْزل

وحكى أهل اللغة: غثا الوادي وجفا، وكذلك الماء: إذا علاه من الزبد والقماش ما لا ينتفع به، والأحوى: الأسود؛ أي: أن النبات يضرب إلى الحوة من شدة الخضرة كالأسود، والحوة: السواد؛ قال الأعشى:

لَمياءُ في شَفَتيها حُوةٌ لَعسٌ وَفي اللثاتِ وفي أنيابِها شَنَبٌ

وفي الصحاح: والحوة: سمرة الشفة، يقال: رجل أحوى، وامرأة حواء، وقد حويت، وبعير أحوى إذا خالط خضرته سواد وصفرة، وتصغير أحوى أحيو؛ في لغة من قال: أسيود، ثم قيل: يجوز أن يكون ﴿أَحْوَىٰ﴾ حالا من ﴿الْمَرْعَىٰ﴾، ويكون المعنى: كأنه من خضرته يضرب إلى السواد؛ والتقدير: أخرج المرعى أحوى، فجعله غثاء يقال: قد حوي النبت؛ حكاه الكسائي.

وقال:

وغَيث من الوسميِّ حُوٍّ تلاعُهُ تبطنته بِشَيظم صَلَتان

ويجوز أن يكون ﴿أحوى﴾ صفة لـ ﴿غُثَاءً﴾، والمعنى: أنه صار كذلك بعد خضرته، وقال أبو عبيدة: فجعله أسود من إحتراقه وقدمه؛ والرطب إذا يبس أسود، وقال عبد الرحمن بن زيد: أخرج المرعى أخضر، ثم لما يبس أسود، فصار غثاء تذهب به الرياح والسيول، وهو مثل ضربه الله تعالى للكفار، لذهاب الدنيا بعد نضارتها.

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ أي القرآن يا محمد فنعلمكه ﴿فَلَا تَنسَىٰ﴾ أي فتحفظ؛ رواه ابن وهب عن مالك، وهذه بشرى من الله تعالى؛ بشره بأن أعطاه آية بينة، وهي أن يقرأ عليه جبريل ما يقرأ عليه من الوحي، وهو أُمي لا يكتب ولا يقرأ، فيحفظه ولا ينساه، وعن ابن أبي نجيح عن مجاهد، قال: كان يتذكر مخافة أن ينسى، فقيل: كفيتكه (٢)؛ قال مجاهد والكلبي: كان النبي ﷺ إذا نزل عليه جبريل بالوحي، لم يفرغ جبريل من آخر الآية، حتى يتكلم النبي ﷺ بأولها، مخافة أن ينساها؛ فنزلت ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ﴾ بعد ذلك شيئا، فقد كفيتكه.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ وجه الاستثناء على هذا، ما قاله الفراء: إلا ما شاء الله، وهو لم يشأ أن تنسى شيئا؛ كقوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٨]، ولا يشاء، ويقال في الكلام: لأعطينك كل ما سألت إلا ما شئت، وإلا أن أشاء أن أمنعك، والنية على ألا يمنعه شيئا، فعلى هذا مجاري الأيمان؛ يستثنى فيها ونية الحالف التمام، وفي رواية أبي صالح

(١) صحيح إليه: الطبري (٣٠/ ١٦٣) في تفسيره.

(٢) صحيح مرسل: مجاهد لم يدرك زمن النبي ﷺ المعنى وصحيح، وانظر السابق.

عن ابن عباس: فلم ينس بعـد نزول هذه الآية حتى مات، ﴿إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾، وعن سعيـد عن قتادة، قال: كان رسول الله ﷺ لا ينسى شيئا؛ ﴿إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [١]، وعلى هذه الأقوال قيل: إلا ما شاء الله أن ينسى، ولكنه لم ينس شـيئـا منه بعد نزول هذه الآية، وقـيل: إلا ما شـاء الله أن ينسى، ثم يذكر بعد ذلك؛ فإذا قد نسي، ولكنه يتذكر ولا ينـسى نسيانا كليا، وقد روي أنه أسقط آية في قراءته في الصلاة، فحسب أبي أنها نسخت، فسـأله فقال: « إني نسيتها» [٢]، وقيل: هو من النسيان؛ أي إلا ما شاء الله أن ينسـيك، ثم قيل: هذا بمعنى النسخ؛ أي إلا ما شاء الله أن ينسـخه، والإنساء نوع من النسخ، وقيل، النسيان بمعنى الترك؛ أي والإنساء يعصمك من أن تترك العمل به؛ إلا ما شاء الله أن تتركـه لنسخه إياه، فـهذا في نسخ العـمل، والأول في نسخ القراءة، قـال الفرغاني: كـان يغشى مجلس الجنيـد أهل البسط من العلوم، وكان يغشـاه ابن كيسان النـحوي، وكان رجلا جليـلا؛ فقال يوما: ما تقول يا أبا القاسم في قول الله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ﴾؟ فأجابه مسرعا - كأنه تقدم له السؤال قبل ذلك بأوقات: لا تنسى العمل به، فقال ابن كـيسان: لا يفضض الله فاك مثلك من يصدر عن رأيه، وقوله: ﴿فَلا﴾ للنفي لا للنهي، وقـيل: للنهي؛ وإنما أثـبتت اليـاء لأن رؤوس الآي على ذلك، والمعنى: لا تغفل عن قراءته وتكراره فتنساه؛ إلا ما شاء الله أن ينسيكه برفع تلاوته للمصلحة، والأول هو المختار؛ لأن الاستثناء من النهي لا يكاد يكون إلا مؤقتا مـعلوما، وأيضا فإن الياء مثبتة في جميع المصاحف، وعليـها القراء، وقيل: معناه إلا ما شاء الله أن يؤخـر إنزاله، وقيل: المعنى فجعله غثاء أحوى إلا ما شاء الله أن ينال بنو آدم والبهائم، فإنه لا يصير كذلك.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ أي الإعلان من القول والعمل، ﴿وَمَا يَخْفَىٰ﴾ من السر، وعن ابن عباس: ما في قلبك ونفسك [٣]، وقال محمد بن حاتم: يعلـم إعلان الصدقة وإخفاءها، وقيل: الجهر ما حـفظته من القرآن في صدرك، ﴿وَمَا يَخْفَىٰ﴾ هو ما نسخ من صدرك، ﴿وَنُيَسِّرُكَ﴾: معطوف على ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ وقوله﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ اعتراض، ومعنى ﴿لِلْيُسْرَىٰ﴾ أي للطريقة اليسرى؛ وهي عـمل الخير، قال ابن عباس: نـيسرك لأن تعمل خيرا؛ ابن مـسعود: ﴿لِلْيُسْرَىٰ﴾ أي للجنة [٤]، وقيل: نوفقك للشريعة اليـسرى؛ وهي الحنيفيـة السمحـة السهلة؛ قال معناه الضـحاك، وقيل: أي نهون عليك الوحي حتى تحفظه وتعمل به.

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ﴾ أي فعظ قـومك يا محمـد بالقرآن، ﴿إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾ أي: الموعظة، وروى يونس عن الحسن قال: تذكرة للمـؤمن، وحجة على الكافر [٥]، وكان ابن عباس يقول: تنفع

---

(١) صحيح لكنه مرسل : قتادة لم يدرك زمن النبي ﷺ ، وانظر تفسير ابن أبي حاتم (١٢/ ٣٩٠) .
(٢) سبق تخريجه .
(٣) صحيح المعنى : ولم أجده .
(٤) سبق تخريجه : وانظر تفسير ابن أبي حاتم (١٢/ ٣٩٠) وذكره عن ابن عباس .
(٥) صحيح إلى الحسن : تفسير الحسن البصري (٢/ ٤١١) .

أوليائي، ولا تنفع أعدائي، وقال الجرجاني: التذكير واجب وإن لم ينفع، والمعنى: فذكر إن نفعت الذكرى؛ أو لم تنفع، فحذف؛ كما قال: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾[النحل: ٨١]، وقيل: إنه مخصوص بأقوام بأعيانهم، وقيل: إن ﴿إن﴾ بمعنى ما؛ أي فذكر ما نفعت الذكرى، فتكون ﴿إن﴾ بمعنى ما، لا بمعنى الشرط؛ لأن الذكرى نافعة بكل حال؛ قاله ابن شجرة، وذكر بعض أهل العربية﴿أن﴾ ﴿إن﴾ بمعنى إذ؛ أي إذ نفعت؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[آل عمران: ١٣٩] أي إذ كنتم؛ فلم يخبر بعلوهم إلا بعد إيمانهم، وقيل: بمعنى قد.

﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠﴾

أي: من يتقي الله ويخافه، فروى أبو صالح[١] عن ابن عباس قال: نزلت في ابن أم مكتوم، الماوردي: وقد يذكر من يرجوه، إلا أن تذكرة الخاشي أبلغ من تذكرة الراجي؛ فلذلك علقها بالخشية دون الرجاء، وإن تعلقت بالخشية والرجاء، وقيل: أي: عمم أنت التذكير والوعظ، وإن كان الوعظ إنما ينفع من يخشى، ولكن يحصل لك ثواب الدعاء؛ حكاه القشيري.

﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ۝١١ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾ أي ويتجنب الذكرى ويبعد عنها، ﴿الْأَشْقَى﴾ أي الشقي في علم الله، وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة، ﴿الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ﴾ أي العظمى، وهي السفلى من أطباق النار؛ قاله الفراء[٢]، وعن الحسن: الكبرى نار جهنم، والصغرى نار الدنيا[٣]؛ وقاله يحيى بن سلام، ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ أي: لا يموت فيستريح من العذاب، ولا يحيا حياة تنفعه؛ كما قال الشاعر:

ألا ما لنفس لا تموتُ فينقضي ٠ عَناها ولا تحيا حياةً لها طَعْمُ

وقد مضى في «النساء»[٤] وغيرها حديث أبي سعيد الخدري، وأن الموحدين من المذنبين إذا دخلوا جهنم - وهي النار الصغرى على قول الفراء - احترقوا فيها وماتوا؛ إلى أن يشفع فيهم، خرجه مسلم[٥]، وقيل: أهل الشقاء متفاوتون في شقائهم، وهذا الوعيد للأشقى، وإن كان ثم شقي لا يبلغ هذه المرتبة.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ أي قد صادف البقاء في الجنة؛ أي من تطهر من الشرك

---

(١) واه: هذا إسناد تالف لكون أبي صالح من الكذّابين على ابن عباس - رضي الله عنهما.

(٢) انظر: معاني القرآن (٣/ ٢٥٦) للفراء.

(٣) تفسير الحسن البصري (٢/ ٤١٢).

(٤) عند الآية (٤٠).

(٥) متفق عليه: وسبق تخريجه ضمن حديث الشفاعة الطويل.

بالإيمان؛ قاله ابن عباس [١] وعطاء وعكرمة، وقال الحسن والربيع: من كان عـمله زاكيا ناميا، وقال معمـر عن قتادة ﴿ تَزَكَّىٰ ﴾ قال بعـمل صالح [٢]، وعنه وعن عطاء وأبي عاليـة : نزلت في صدقة الفطر [٣]، وعن ابن سيرين ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴾ قال: خرج فصلى بعدما أدى، وقال عكرمة: كان الرجل يقـول أقدم زكاتي بين يدي صلاتي، فقال سفـيان: قال الله تعالى ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴾، وروي عن أبي سـعيـد الخدري وابن عمـر: أن ذلك في صـدقة الفطر، وصلاة العيد، وكذلك قال أبو العالية، وقال: إن أهل المدينة لا يرون صدقة أفضل منها، ومن سقـاية الماء، وروى كثيـر بن عبدالله عن أبيـه عن جده، عن النبي ﷺ في قـوله تعالى ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ قال: «أخرج زكاة الفطر» [٤]، ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴾ قال: « صلاة العيـد»، وقال ابن عباس والضحاك ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ في طريق المصلى ﴿فَصَلَّىٰ﴾ صلاة العيد، وقـيل: المراد بالآية زكاة الأموال كلها؛ قاله أبو الأحوص وعطاء، وروى ابن جريج قال: قلت لعطاء ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ للفطر؟ قال: هي للصدقـات كلها، وقـيل: هي زكاة الأعمـال، لا زكاة الأمـوال، أي تطهر في أعمـاله من الرياء والتقـصير؛ لأن الأكـثر أن يقال في المال: زكى، لا تزكى، وروى جـابر بن عبدالله قـال: قال النبي ﷺ: «﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ أي من شـهـــد أن لا إله إلا اللّه، وخلـع الأنداد، وشـهد أني رسـول اللّه» [٥]، وعن ابن عباس ﴿تَزَكَّىٰ﴾ قال: لا إله إلا اللّه، وروى عنه عطاء قال: نزلت في عثمان بن عفان رضي اللّه عنه، قال: كان بالمدينة منافق كانت له نخلة بالمدينة، مائلة في دار رجل من الأنصار، إذا هبت الرياح أسقطت البسر والرطب إلى دار الأنصاري، فيأكل هو وعياله، فخاصمه المنافق؛ فشكا ذلك إلى رسول اللّه ﷺ، فأرسل إلى المنافق وهو لا يعلم نفاقه، فقال: « إن أخاك الأنصاري ذكر أن بسرك ورطبك يقع إلى منزلـه، فيأكل هو وعيـاله، فهل لك أن أعطيك نخلة في الجنة بدلها»؟ فقال: أبيع عاجلا بآجل لا أفعل، فذكروا أن عثمـان بن عفان أعطاه حائطا من نخل بدل نخلته؛ ففيه نزلت ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾، ونزلت في المنافق ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾ [٦]، وذكر الضحاك أنها نزلت في أبي بكر الصديق رضي اللّه عنه [٧].

الثانية : قد ذكـرنا القول في زكاة الفطر في السـورة «البقرة » مسـتوفى [٨]، وقد تقدم أن هذه السورة مكية في قول الجمهور، ولم يكن بمكة عـيد ولا زكاة فطر، القشيري: ولا يبعد أن يكون أثنى على من يمتثل أمره في صدقة الفطر وصلاة العيد، فيما يأمر به في المستقبل.

---

(١) منقطع : بين علي بن أبي طلحة وابن عـباس ، وكذا هو عند الطبري (٣٠/ ١٦٦) في تفسـيره ، وكذا رواه عن عكرمة بإسناد حسن .

(٢) صحيح : تفسير الطبري (٣٠/ ١٦٦) .

(٣) مرسل : تفسير الطبري (٣٠/ ١٦٦) .

(٤) ضعيف : الهيثمي (٣/ ٨٠) في المجمع ، وعزاه للبزار ، وفيه : كثير بن عبد الله وهو ضعيف .

(٥) ضعيف جدًا : الهيثمي (٧/ ١٣٧) وعزاه للبزار ، عن شيخه عباد بن أحمد العزرمي وهو : متروك .

(٦، ٧) مرسلان منقطعان : وانظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٢/ ٣٩٤) .

(٨) عند الآية (٤٣) .

الثالثة : قوله تعالى: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾ أي: ذكر ربه [١]، وروى عطاء عن ابن عباس قال: يريد ذكر معاده وموقفه بين يدي الله جل ثناؤه، فعبده وصلى له، وقيل: ذكر اسم ربه بالتكبير في أول الصلاة، لأنها لا تنعقد إلا بذكره؛ وهو قوله: الله أكبر، وبه يحتج على وجوب تكبيرة الافتتاح، وعلى أنها ليست من الصلاة؛ لأن الصلاة معطوفة عليها، وفيه حجة لمن قال: إن الافتتاح جائز بكل اسم من أسماء الله عز وجل، وهذه مسألة خلافية بين الفقهاء، وقد مضى القول في هذا في أول سورة البقرة [٢]، وقيل: هي تكبيرات العيد، قال الضحاك ﴿وذكر اسم ربه﴾ في طريق المصلى ﴿فَصَلَّىٰ﴾؛ أي صلاة العيد، وقيل: ﴿وذكر اسم رَبِّهِ﴾ وهو أن يذكره بقلبه عند صلاته، فيخاف عقابه، ويرجو ثوابه؛ ليكون استيفاؤه لها، وخشوعه فيها، بحسب خوفه ورجائه، وقيل: هو أن يفتتح أول كل سورة ببسم الله الرحمن الرحيم، ﴿فَصَلَّىٰ﴾ أي فصلى وذكر، ولا فرق بين أن تقول: أكرمتني فزرتني، وبين أن تقول: زرتني فأكرمتني، قال ابن عباس: هذا في الصلاة المفروضة، وهي الصلوات الخمس، وقيل: الدعاء؛ أي دعاء الله بحوائج الدنيا والآخرة، وقيل: صلاة العيد؛ قاله أبو سعيد الخدري وابن عمر وغيرهما، وقد تقدم، وقيل: هو أن يتطوع بصلاة بعد زكاته؛ قاله أبو الأحوص، وهو مقتضى قول عطاء، وروي عن عبدالله قال: من أقام الصلاة ولم يؤت الزكاة فلا صلاة له [٣].

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦﴾

قراءة العامة ﴿بلْ تُؤْثِرُونَ﴾ بالتاء؛ تصديقه قراءة أُبيّ «بل أنتم تؤثرون»، وقرأ أبو عمرو ونصر بن عاصم «بل يؤثرون» بالياء على الغيبة [٤]؛ تقديره: بل يؤثرون الأشقون الحياة الدنيا، وعلى الأول فيكون تأويلها بل تؤثرون أيها المسلمون الاستكثار من الدنيا، على الاستكثار من الثواب، وعن ابن مسعود أنه قرأ هذه الآية، فقال: أتدرون لم آثرنا الحياة الدنيا على الآخرة؟ لأن الدنيا حضرت وعجلت لنا طيباتها وطعامها وشرابها، ولذاتها وبهجتها، والآخرة غيبت عنا، فأخذنا العاجل، وتركنا الآجل [٥]، وروى ثابت عن أنس قال: كنا مع أبي موسى في مسير، والناس يتكلمون ويذكرون الدنيا، قال أبو موسى: يا أنس، إن هؤلاء يكاد أحدهم يفري الأديم بلسانه فريا، فتعال فلنذكر ربنا ساعة، ثم قال: يا أنس، ما ثَبَر [٦] الناس ما بطأ بهم؟ قلت: الدنيا والشيطان والشهوات، قال: لا، ولكن عجلت الدنيا، وغيبت الآخرة، أما والله لو عاينوها ما عدلوا [٧] ولا ميلوا [٨].

﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧﴾

أي والدار الآخرة؛ أي الجنة، ﴿خَيْرٌ﴾ أي أفضل، ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ أي أدوم من الدنيا، وقال النبي

(١) انظر تفسير ابن أبي حاتم : (١٢/ ٣٩٤) .
(٢) عند الآية : ٣ .
(٣) انظر الدر المنثور (٦/ ٥٦٩) للسيوطي ، وتفسير ابن كثير (٨/ ٢٩٨) .
(٤) قراءة متواترة : تقريب النشر (ص ١٨٨) .
(٥) ضعيف جدًا : الطبري (٣٠/ ١٦٧) بسند فيه محمد بن حميد وهو متهم بالكذب .
(٦) ثبر : (١/ ٢٠٦) أبطا وحبس ، وصد ، ومنع النهاية في غريب الحديث .
(٧) عدلوا : ساووا النهاية في غريب الحديث (٤/ ٣٨٢) .
(٨) ميلوا : شكوا وترددوا النهاية (٤/ ٤٣٠) .

ﷺ : « ما الدنيا في الآخرة إلا كـما يضع أحدكم أصبعه في اليم، فلينـظر بم يرجع» صحيح، وقد تقدم (١) ، وقال مـالك بن دينار: لو كانت الدنيـا من ذهب يفنى، والآخرة من خـزف يبقى، لكان الواجب أن يؤثر خـزف يبقى، على ذهب يفنى، قـال: فكيف والآخرة من ذهب يبقـى، والدنيا من خزف يفنى؟!

﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩ ﴾

قوله تعالى ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ﴾ قال قتـادة وابن زيد: يريد قوله : ﴿وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾، وقالا: تتـابعت كتب اللّه جل ثناؤه ـ كـما تسـمعون ـ أن الآخـرة خير وأبقـى من الدنيا(٢) ، وقال الحسن ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ﴾ قال: كتب اللّه جل ثناؤه كلها، الكلبي: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ﴾ من قـوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ إلي آخـر السـورة؛ لحـديث أبي ذر على مـا يأتي، وروى عكرمـة عن ابن عباس ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ﴾ قال: هذه السـورة، وقال الضحاك: إن هذا القـرآن لفي الصحف الأولى؛ أي الكتب الأولى(٣) ، ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ يعني: الكتب المنزلة عليهـما، ولم يرد أن هذه الألفاظ بعـينها في تلك الصحف، وإنما هو على المعنـى؛ أي إن معنى هذا الكلام وارد في تلك الصحف، وروى الآجري من حديث أبي ذر قال: قلت: يا رسـول اللّه، فما كانت صحف إبراهيم؟ قال: «كانت أمثالا كلهـا: أيها الملك المتسلط المبتلى المغرور، إني لم أبعثك لتجمـع الدنيا بعضها على بعض، ولكن بعثتك لترد عني دعوة المظلوم، فإني لا أردها ولو كانت من فم كافر، وكان فيها أمثال: وعلى العاقل أن يكون له ثلاث ساعـات: ساعة يناجي فيهـا ربه، وساعة يحاسب فيهـا نفسه، يفكر فيهـا في صنع اللّه عز وجل إليه، وسـاعة يخلو فيهـا لحاجته من المطعم والمشـرب، وعلى العاقل ألا يكون ظاعنا إلا في ثلاث: تزود لمعاد، ومـرمة لمعاش، ولذة في غير مـحرم، وعلى العاقل أن يكون بصيرا بزمانه، مقـبلا على شأنه، حافظا للسانه، ومن عد كلامه من عمله قل كلامـه إلا فيما يعينه»، قال: قلت يا رسول اللّه، فما كانت صحف موسى؟ قـال: كانت عبرا كلها: عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفـرح! وعجبت لمن أيقـن بالقدر كيف ينصب، وعـجبت لمن رأى الدنيا وتقـلبها بأهلهـا كيف يطمئن إليها! وعـجبت لمن أيقن بالحساب غدا ثم هو لا يعمل!» قـال: قلت يا رسول اللّه، فهل في أيدينا شيء مما كان فـي يدي إبراهيم وموسى، مما أنزل اللّه عليك؟ قـال: « نعم اقرأ يا أبا ذر: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ۝١٥ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝١٦ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۝١٧ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾» ، وذكر الحديث(٤) .

---

(١) صحيح : وقد سبق .

(٢) صحيح إليهما : الطبري (٣٠/ ١٦٨) في تفسيره .

(٣) منقطع : بين الضحاك وابن عباس ـ رضي الله عنهما وانظر السابق .

(٤) ضعيف جدًا : وفي إسناده متروك ، وقد سبق تخريجه كما عند ابن حبان (٣٦١) في صحيحه .

سورة الغاشية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ۝ ﴾

﴿هَلْ﴾ بمعنى قد؛ كقوله: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإنسَانِ﴾ [الإنسان: ١]؛ قاله قطرب، أي قد جاءك يا محمد حديث الغاشية؛ أي القيامة التي تغشى الخلائق بأهوالها وأفزاعها؛ قاله أكثر المفسرين، وقال سعيد بن جبير [(١)] ومحمد بن كعب: الغاشية: النار تغشى وجوه الكفار؛ ورواه أبو صالح عن ابن عباس[(٢)]؛ ودليله قوله تعالى: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، وقيل: تغشى الخلق، وقيل: المراد النفخة الثانية للبعث؛ لأنها تغشى الخلائق، وقيل الغاشية أهل النار يغشونها، ويقتحمون فيها، وقيل: معنى ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ أي هذا لم يكن من علمك، ولا من علم قومك، قال ابن عباس: لم يكن أتاه قبل ذلك على هذا التفصيل المذكور ها هنا، وقيل: إنها خرجت مخرج الاستفهام لرسوله؛ ومعناه إن لم يكن أتاك حديث الغاشية فقد أتاك؛ وهو معنى قول الكلبي [(٣)].

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝ ﴾

قال ابن عباس: لم يكن أتاه حديثهم، فأخبره عنهم، فقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم القيامة[(٤)]، ﴿خَاشِعَةٌ﴾ قال سفيان: أي ذليلة بالعذاب، وكل متضائل ساكن خاشع، يقال: خشع في صلاته: إذا تذلل ونكس رأسه، وخشع الصوت: خفي؛ قال اللّه تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ [طه: ١٠٨]، والمراد بالوجوه أصحاب الوجوه، وقال قتادة وابن زيد﴿خَاشِعَةٌ﴾ أي في النار، والمراد وجوه الكفار كلهم؛ قاله يحيى بن سلام، وقيل: أراد وجوه اليهود والنصارى؛ قاله ابن عباس [(٥)]، ثم قال: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ فهذا في الدنيا؛ لأن الآخرة ليست دار عمل، فالمعنى: وجوه عاملة ناصبة في الدنيا ﴿خَاشِعَةٌ﴾ في الآخرة، قال أهل اللغة: يقال للرجل إذا دأب في سيره: قد عمل يعمل عملا، ويقال للسحاب إذا دام برقه: قد عمل يعمل عملا، وذا سحاب عمل، قال الهذلي:

حتى شآها كليل مُوهنا عَمل باتت طِرابا وبات اللَّيلُ لم يَنم

﴿نَّاصِبَةٌ﴾ أي تعبة، يقال: نصب بالكسر ينصب نصبا: إذا تعب، ونصبا أيضا، وأنصبه غيره،

---

(١) ضعيف إلى سعيد بن جبير: تفسير الطبري (٣٠/ ١٧٠).

(٢) واه: أبو صالح كذّاب في روايته، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما وانظر السابق.

(٣، ٤) ضعيفان: بنحوها عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، وعن الكلبي وهما إسنادان ضعيفان، ورواهما الشوكاني (٧/ ٤٧٧) في فتح القدير، وابن الجوزي (٦/ ١٥٠) في زاد المسير.

(٥) حسن بطرقه: ابن أبي حاتم (١٢/ ٣٩٣) في تفسيره من طريق علي بن أبي طلحة منقطعًا، ومن طريق شبيب ابن بشر، عن عكرمة، عن ابن عباس.

فروى الضحاك عن ابن عباس قال: هم الذين أنصبوا أنفسهم في الدنيا على معصية اللّه عز وجل، وعلى الكفر؛ مثل عبدة الأوثان، وكفار أهل الكتاب مثل الرهبان وغيرهم، لا يقبل اللّه جل ثناؤه منهم إلا ما كان خالصا له (١).

وقال سعيد عن قتادة: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ قال: تكبرت في الدنيا عن طاعة اللّه عز وجل، فأعملها اللّه وأنصبها في النار، بجر السلاسل الثقال، وحمل الأغلال، والوقوف حفاة عراة في العرصات، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة (٢)، قال الحسن وسعيد بن جبير: لم تعمل لله في الدنيا، ولم تنصب له، فأعملها وأنصبها في جهنم (٣)، وقال الكلبي: يجرون على وجوههم في النار (٤)، وعنه وعن غيره: يكلفون ارتقاء جبل من حديد في جهنم، فينصبون فيها أشد ما يكون من النصب، بمعالجة السلاسل والأغلال والخوض في النار؛ كما تخوض الإبل في الوحل، وارتقائها في صعود من نار، وهبوطها في حدور منها؛ إلى غير ذلك من عذابها (٥)، وقاله ابن عباس، وقرا ابن محيصن وعيسى وحميد، ورواها عبيد عن شبل، عن ابن كثير « نَاصِبَةً» بالنصب على الحال، وقيل: على الذم، الباقون بالرفع على الصفة أو على إضمار مبتدأ، فيوقف على ﴿خَاشِعَةٌ﴾، ومن جعل المعنى في الآخرة، جاز أن يكون خبرا بعد خبر عن ﴿وُجُوهٌ﴾، فلا يوقف على ﴿خَاشِعَةٌ﴾، وقيل﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ أي عاملة في الدنيا ناصبة في الآخرة، وعلى هذا يحتمل وجوه يومئذ عاملة في الدنيا، ناصبة في الآخرة، خاشعة، قال عكرمة والسدي: عملت في الدنيا بالمعاصي، وقال سعيد بن جبير وزيد بن أسلم: هم الرهبان أصحاب الصوامع (٦)؛ وقاله ابن عباس، وقد تقدم في رواية الضحاك عنه، وروى عن الحسن قال: لما قدم عمر بن الخطاب - رضي اللّه عنه - الشام أتاه راهب شيخ كبير متقهل، عليه سواد، فلما رآه عمر بكى، فقال له: يا أمير المؤمنين، ما يبكيك؟ قال: هذا المسكين طلب أمرا فلم يصبه، ورجا رجاء فأخطأه، وقرأ قول اللّه عز وجل: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ (٧)، قال الكسائي: التقهل: رثاثة الهيئة، ورجل متقهل: يابس الجلد سيئ الحال، مثل المتقحل، وقال أبو عمرو: التقهل: شكوى الحاجة، وأنشد:

لَعوًا إذا لاقيته تَقَهَّلا

والقهل: كفران الإحسان، وقد قهل يقهل قهلا: إذا أثنى ثناء قبيحا، وأقهل الرجل تكلف ما يعيبه ودنس نفسه، وانقهل ضعف وسقط؛ قاله الجوهري، وعن علي رضي اللّه عنه أنهم أهل حروراء؛ يعني الخوارج الذين ذكرهم رسول اللّه ﷺ فقال: « تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، وأعمالكم مع أعمالهم، يمرقون من الدين كما تمرق السهم من الرميَّة. . . »

(١) منقطع: بين الضحاك وابن عباس - رضي الله عنهما وانظر التالي.

(٢) صحيح: الطبري (٣٠/ ١٧١) في تفسيره، وابن أبي حاتم (١٢/ ٣٩٣) في تفسيره.

(٣) صحيح: كذا في فتح القدير (٧/ ٤٧٧)، وعند الطبري في تفسيره بسند صحيح إلى الحسن (٣٠/ ١٧١).

(٤، ٥) فتح القدير (٧/ ٤٧٧) للشوكاني.

(٦) هذا قول ابن عباس من رواية الثعلبي، عن أبي الضحى، عن ابن عباس كما في فتح الباري (٨/ ٧٠٠).

(٧) منقطع: فالحسن لم يدرك زمن عمر - رضي الله عنه، ورواه الحاكم (٢/ ٥٦٧) في المستدرك بسند منقطع من طريق أبي عمران الجوني ولم يدرك عمر - رضي الله عنه.

الحديث (١) .

﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝﴾

قوله تعالى: ﴿تَصْلَىٰ﴾ أي يصيبها صلاؤها وحرها، ﴿حَامِيَةً﴾ شديدة الحر؛ أي قد أوقدت وأحميت المدة الطويلة، ومنه حمي النهار بالكسر، وحمي التنور حميا فيهما؛ أي اشتد حره، وحكى الكسائي: اشتد حمي الشمس وحموها: بمعنى، وقرأ أبو عمرو وأبو بكر ويعقوب «تُصلى» بضم التاء(٢)، الباقون بفتحها، وقرئ « تُصَلَّىٰ» بالتشديد، وقد تقدم القول فيها في ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]، الماوردي: فإن قيل فما معنى وصفها بالحمي، وهي لا تكون إلا حامية، وهو أقل أحوالها، فما وجه المبالغة بهذه الصفة الناقصة؟ قيل: قد اختلف في المراد بالحامية ها هنا على أربعة أوجه: أحدها: أن المراد بذلك أنها دائمة الحمي، وليست كنار الدنيا التي ينقطع حميها بانطفائها، الثاني: أن المراد بالحامية أنها حمى من ارتكاب المحظورات، وانتهاك المحارم؛ كما قال النبي ﷺ: « إن لكل ملك حمى، وإن حمى الله محارمه، ومن يرتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه» (٣)، الثالث: أنها تحمي نفسها عن أن تطاق ملامستها، أو ترام مماستها؛ كما يحمي الأسد عرينه؛ ومثله قول النابغة:

تَعْدو الذِّئابُ على من لا كِلابَ له ... وتتقي صَوْلَةَ المستأسِدِ الحامي

الرابع: أنها حامية حمى غيظ وغضب؛ مبالغة في شدة الانتقام، ولم يرد حمى جرم وذات؛ كما يقال: قد حمى فلان: إذا اغتاظ وغضب عند إرادة الانتقام، وقد بين الله تعالى بقوله هذا المعنى فقال: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [الملك: ٨] .

﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ۝﴾

الآني: الذي قد انتهى حره؛ من الإيناء، بمعنى التأخير، ومنه «آنيت وآذيت» (٤)، وآناه يؤنيه إيناء، أي أخره وحبسه وأبطأه، ومنه ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [الرحمن: ٤٤]، وفي التفاسير ﴿مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ أي تناهى حرها؛ فلو وقعت نقطة منها على جبال الدنيا لذابت، وقال الحسن: ﴿آنِيَةٍ﴾ أي حرها أدرك؛ أوقدت عليها جهنم منذ خلقت، فدفعوا إليها وردا عطاشا (٥)، وعن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: بلغت أناها، وحان شربها (٦) .

---

(١) متفق عليه: البخاري (٦٩٣٠) في استتابة المرتدين، ومسلم (١٠٦٦) في الزكاة .

(٢) قراءة متواترة: كما في تقريب النشر (ص١٨٨) .

(٣) متفق عليه: قطعة من حديث: « إن الحلال بيِّن » ورواه البخاري (٥٢) في الإيمان، ومسلم (١٥٩٩) في المساقاة عن النعمان بن بشير ـ رضي الله عنه .

(٤) صحيح: أبو داود (١١١٨) في الصلاة، عن عبد الله بن بسر، وصححه الألباني هناك.

(٥) صحيح إلى مجاهد: الطبري (٣٠/ ١٧٢) في تفسيره .

(٦) صحيح إليه: الطبري (٣٠/ ١٧٢) في تفسيره .

﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ﴾ أي: لأهل النار، ﴿طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ لما ذكر شرابهم ذكر طعامهم، قال عكرمة ومجاهد: الضريع: نبت ذو شوك لاصق بالأرض، تسميه قريش الشبرق إذا كان رطبا، فإذا يبس فهو الضريع، لا تقربه دابة ولا بهيمة ولا ترعاه؛ وهو سم قاتل، وهو أخبث الطعام وأشنعه؛ على هذا عامة المفسرين [١]، إلا أن الضحاك روى عن ابن عباس قال: هو شيء يرمى به البحر، يسمى الضريع، من أقوات الأنعام لا الناس، فإذا وقعت فيه الإبل لم تشبع، وهلكت هزلا [٢]، والصحيح ما قاله الجمهور: إنه نبت، قال أبو ذؤيب:

رعى الشّبرق الرَّيان حتى إذا ذوى وعَاد ضَريعًا بأن منه النَّحائِصُ

وقال الهذلي وذكر إبلا وسوء مرعاها:

وحبسن في هزم الضَّريع فكلها حَدْباءُ داميةُ اليدينِ حَرودُ

وقال الخليل: الضريع: نبات أخضر منتن الريح، يرمي به البحر، وقال الوالبي عن ابن عباس: هو شجر من نار [٣]، ولو كانت في الدنيا لأحرقت الأرض وما عليها، وقال سعيد بن جبير: هو الحجارة [٤]، وقاله عكرمة، والأظهر أنه شجر ذو شوك حسب ما هو في الدنيا، وعن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «الضريع: شيء يكون في النار، يشبه الشوك، أشد مرارة من الصبر، وأنتن من الجيفة، وأحر من النار، سماه اللّه ضريعا» [٥]، وقال خالد بن زياد: سمعت المتوكل بن حمدان يسأل عن هذه الآية ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ قال: بلغني أن الضريع شجرة من نار جهنم، حملها القيح والدم، أشد مرارة من الصبر، فذلك طعامهم.

وقال الحسن: هو بعض ما أخفاه اللّه من العذاب [٦]، وقال ابن كيسان: هو طعام يضرعون عنده ويذلون، ويتضرعون منه إلى اللّه تعالى، طلبا للخلاص منه؛ فسمي بذلك، لأن أكله يضرع في أن يعفى منه، لكراهته وخشونته، قال أبو جعفر النحاس: قد يكون مشتقا من الضارع، وهو الذليل؛ أي ذو ضراعة، أي من شربه ذليل تلحقه ضراعة، وعن الحسن أيضا: هو الزقوم، وقيل: هو واد في جهنم، فاللّه أعلم، وقد قال اللّه تعالى في موضع آخر ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ۝٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ [الحاقة: ٣٥ ـ ٣٦]، وقال هنا ﴿إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ وهو غير الغسلين، ووجه الجمع أن النار دركات؛ فمنهم من طعامه الزقوم، ومنهم من طعامه الغسلين، ومنهم من طعامه الضريع، ومنهم من شرابه الحميم، ومنهم من شرابه الصديد، قال الكلبي: الضريع في درجة ليس فيها غيره، والزقوم في درجة

---

(١) حسن إليهما: فطرقه خلط فيها الطبري سقيمها بضعيفها لكنها تُحسَّن، وانظر: تفسيره (٣٠/ ١٧٢).

(٢) منقطع: بين الضحاك وابن عباس وانظر السابق.

(٣) منقطع: بين علي بن أبي طلحة الوالبي وابن عباس ـ رضي الله عنهما وانظر السابق.

(٤) حسن إليه: الطبري (٣٠/ ١٧٣).

(٥) واه ولعله أن يكون موضوعًا: عزاه السيوطي (٦/ ٥٧٤) في الدر المنثور لابن مردويه، عن ابن عباس، وقال: واه.

(٦) انظر: فتح القدير (٧/ ٤٧٨) للشوكاني، وابن أبي حاتم (١٢/ ٤٩٤) في تفسيره.

أخرى، ويجوز أن تحمل الآيتان على حالتين كما قال﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [الرحمن: ٤٤]، القتبي: ويجوز أن يكون الضريع وشجرة الزقوم نبتين من النار، أو من جوهر لا تأكله النار، وكذلك سلاسل النار وأغلالها وعقاربها وحياتها، ولو كانت على ما نعلم ما بقيت على النار، قال: وإنما دلنا الله على الغائب عنده، بالحاضر عندنا؛ فالأسماء متفقة الدلالة، والمعاني مختلفة، وكذلك ما في الجنة من شجرها وفرشها، القشيري: وأمثل من قول القتبي أن نقول: إن الذي يبقي الكافرين في النار ليدوم عليهم العذاب، يبقي النبات وشجرة الزقوم في النار، ليعذب بها الكفار، وزعم بعضهم أن الضريع بعينه لا ينبت في النار، ولا أنهم يأكلونه، فالضريع من أقوات الأنعام، لا من أقوات الناس، وإذا وقعت الإبل فيه لم تشبع، وهلكت هزلا، فأراد أن هؤلاء يقتاتون بما لا يشبعهم، وضرب الضريع له مثلا، أنهم يعذبون بالجوع كما يعذب من قوته الضريع، قال الترمذي الحكيم: وهذا نظر سقيم من أهله وتأويل دنيء، كأنه يدل على أنهم تحيروا في قدرة الله تعالى، وأن الذي أنبت في هذا التراب هذا الضريع قادر على أن ينبته في حريق النار، جعل لنا في الدنيا من الشجر الأخضر نارا، فلا النار تحرق الشجر، ولا رطوبة الماء في الشجر تطفئ النار؛ فقال تعالى﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٨٠]، وكما قيل حين نزلت﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [الإسراء: ٩٧]: قالوا يا رسول الله، كيف يمشون على وجوههم؟ فقال: « الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم» [(١)]، فلا يتحير في مثل هذا إلا ضعيف القلب، أو ليس قد أخبرنا أنه ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦]، وقال: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، وقال﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا﴾ أي: قيودا، ﴿ وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ ﴾ [المزمل: ١٢] قيل: ذا شوك، فإنما يتلون عليهم العذاب بهذه الأشياء.

﴿ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ ﴾

يعني الضريع لا يسمن آكله، وكيف يسمن من يأكل الشوك؟! قال المفسرون: لما نزلت هذه الآية قال المشركون: إن إبلنا لتسمن بالضريع، فنزلت﴿ لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾، وكذبوا، فإن الإبل إنما ترعاه رطبا، فإذا يبس لم تأكله، وقيل: اشتبه عليهم أمره فظنوه كغيره من النبت النافع، لأن المضارعة المشابهة، فوجدوه لا يسمن ولا يغني من جوع.

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ ﴾

قوله تعالى﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ أي ذات نعمة، وهي وجوه المؤمنين؛ نعمت بما عاينت من عاقبة أمرها وعملها الصالح، ﴿لِّسَعْيِهَا﴾ أي لعملها الذي عملته في الدنيا، ﴿رَاضِيَةٌ﴾ في الآخرة حين أعطيت الجنة بعملها، ومجازه: لثواب سعيها راضية، وفيها واو مضمرة، المعنى: ووجوه يومئذ، للفصل بينها وبين الوجوه المتقدمة، والوجوه عبارة عن الأنفس، ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ أي: مرتفعة، لأنها فوق السموات حسب ما تقدم، وقيل: عالية القدر، لأن فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وهم

(١) صحيح: وسبق تخريجه مرارًا.

فيها خالدون.

﴿ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَـٰغِيَةً ﴿١١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿لاغِيَةً﴾ أي كلاما ساقطا غير مرضي، وقال: ﴿لاغِيَةً﴾، واللغو واللغا واللاغية: بمعنى واحد، قال:

عن اللَّغا ورفث التَّكلم (١)

وقال الفراء والأخفش أي لا تسمع فيها كلمة لغو، وفي المراد بها ستة أوجه: أحدها: يعني كذبا وبهتانا وكفرا باللّه عز وجل؛ قاله ابن عباس (٢)، الثاني: لا باطل ولا إثم؛ قاله قتادة (٣)، الثالث: أنه الشتم؛ قاله مجاهد (٤)، الرابع: المعصية؛ قاله الحسن (٥)، الخامس: لا يسمع فيها حالف يحلف بكذب؛ قاله الفراء، وقال الكلبي: لا يسمع في الجنة حالف بيمين برة ولا فاجرة، السادس: لا يسمع في كلامهم كلمة تلغى؛ لأن أهل الجنة لا يتكلمون إلا بالحكمة وحمد اللّه على ما رزقهم من النعيم الدائم؛ قاله الفراء أيضا، وهو أحسنها لأنه يعم ما ذكر، وقرأ أبو عمرو وابن كثير «لا يسمع» بياء غير مسمى (٦)الفاعل، وكذلك نافع، إلا أنه بالتاء (٧)المضمومة؛ لأن اللاغية اسم مؤنث فأنث الفعل لتأنيثه، ومن قرأ بالياء فلأنه حال بين الاسم والفعل الجار والمجرور، وقرأ الباقون بالتاء مفتوحة ﴿لاغِيَةً﴾ نصا على إسناد ذلك للوجوه، أي: لا تسمع الوجوه فيها لاغية.

﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ أي: بماء مندفق، وأنواع الأشربة اللذيذة على وجه الأرض من غير أخدود، وقد تقدم في سورة الإنسان أن فيها عيونا، فـ ﴿عَيْنٌ﴾: بمعنى عيون، واللّه أعلم، ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ أي عالية، وروي أنه كان ارتفاعها قدر ما بين السماء والأرض، ليرى ولي اللّه ملكه حوله، ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾ أي أباريق وأوان، والإبريق: هو ماله عروة وخرطوم، والكوب: إناء ليس له عروة ولا خرطوم، وقد تقدم هذا في سورة «الزخرف» (٨)وغيرها، ﴿نَمَارِقُ﴾ أي وسائد، الواحدة نمرقة، ﴿مَصْفُوفَةٌ﴾ أي واحدة إلى جنب الأخرى، قال الشاعر:

وإنا لَنُجري الكأسَ بين شُروبنا وبينَ أبي قابوسَ فوقَ النَّمارقِ

---

(١)عجز بيت للعجاج، وصدره:

ورُبَّ أسراب حجيج كُظُّم

(٢) ضعيف: الطبري (٣٠/ ١٧٤) في تفسيره من طريق العَوْفيين.

(٣) صحيح إلى قتادة: الطبري (٣٠/ ١٧٤) في تفسيره.

(٤) صحيح إلى مجاهد: الطبزي (٣٠/ ١٧٤) في تفسيره.

(٥)انظر الأقوال كلها في فتح القدير (٧/ ٤٧٩) للشوكاني.

(٦، ٧) قراءتان متواترتان: انظر الإقناع (٢/ ٨٠٩).

(٨)عند الآية (٧١).

وقال آخر:

كهولٌ وشبانٌ حِسانٌ وجوهُهُم على سُرُرٍ مَصْفوفةٍ ونمارقِ

وفي « الصحاح»: النُّمرق والنمرقة: وسادة صغيرة، وكذلك النِّمرِقة بالكسر لغة حكاها يعقوب، وربما سموا الطنفسة التي فوق الرحل نمرقة؛ عن أبي عبيد، ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ قال أبو عبيدة: الزرابي: البسط، وقال ابن عباس: الزرابي: الطنافس التي لها حمل رقيق، واحدتها: زربية [١]؛ وقاله الكلبي والفراء، والمبثوثة: المبسوطة؛ قاله قتادة، وقيل: بعضها فوق بعض؛ قاله عكرمة، وقيل: كثيرة؛ قاله الفراء [٢]، وقيل: متفرقة في المجالس؛ قاله القتبي.

قلت: هذا أصوب، فهي كثيرة متفرقة، ومنه ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وقال أبو بكر الأنباري: وحدثنا أحمد بن الحسين، قال حدثنا حسين بن عرفة، قال حدثنا عمار بن محمد، قال: صليت خلف منصور بن المعتمر، فقرأ: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾، وقرأ فيها: « وزَرابيُّ مبثوثةٌ متكئين فيها ناعمين » .

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾

قال المفسرون: لما ذكر الله عز وجل أمر أهل الدارين، تعجب الكفار من ذلك، فكذبوا وأنكروا؛ فذكرهم الله صنعته وقدرته؛ وأنه قادر على كل شيء، كما خلق الحيوانات والسماء والأرض، ثم ذكر الإبل أولا، لأنها كثيرة في العرب، ولم يروا الفيلة، فنبههم جل ثناؤه على عظيم من خلقه؛ قد ذلله للصغير، يقوده وينيخه وينهضه ويحمل عليه الثقيل من الحمل وهو بارك، فينهض بثقيل حمله، وليس ذلك في شيء من الحيوان غيره، فأراهم عظيما من خلقه، مسخرا لصغير من خلقه؛ يدلهم بذلك على توحيده وعظيم قدرته، وعن بعض الحكماء: أنه حدث عن البعير وبديع خلقه، وقد نشأ في بلاد لا إبل فيها؛ ففكر ثم قال: يوشك أن تكون طوال الأعناق، وحين أراد بها أن تكون سفائن البر، صبرها على احتمال العطش؛ حتى إن إظماءها ليرتفع إلى العشر فصاعدا، وجعلها ترعى كل شيء نابت في البراري والمفاوز، مما لا يرعاه سائر البهائم، وقيل: لما ذكر السرر المرفوعة قالوا: كيف نصعدها؟ فأنزل الله هذه الآية، وبين أن الإبل تبرك حتى يحمل عليها ثم تقوم؛ فكذلك تلك السرر تتطامن ثم ترتفع، قال معناه قتادة ومقاتل وغيرهما، وقيل: الإبل هنا القطع العظيمة من السحاب؛ قاله المبرد: قال الثعلبي: وقيل في الإبل هنا: السحاب، ولم أجد لذلك أصلا في كتب الأئمة.

قلت: قد ذكر الأصمعي أبو سعيد عبد الملك بن قريب، قال أبو عمرو: من قرأها ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ بالتخفيف: عنى به البعير، لأنه من ذوات الأربع، يبرك فتحمل عليه الحمولة، وغيره من ذوات الأربع لا يحمل عليه إلا وهو قائم، ومن قرأها بالتثقيل فقال: ﴿ الإِبِلِ ﴾، عني بها السحاب التي تحمل الماء للمطر، وقال الماوردي [٣]: وفي الإبل وجهان: أحدهما: وهو أظهرهما

---

(١)ذكره البغوي (٨/ ٤٠٩) في تفسيره .

(٢)معاني القرآن (٣/ ٢٥٨) للفراء .

(٣)انظر: تفسير الماوردي (٦/ ٢٦٢) المسمى بالنكت والعيون .

وأشهرهما: أنها الإبل من النعـم، الثاني: أنها السحاب، فإن كانت المراد بها السحـاب، فلما فيها من الآيات الدالة على قدرته، والمنافع العامة لجميع خلقه، وإن كان المراد بها الإبل من النعم، فلأن الإبل أجمع للمنـافع من سائر الحيـوان؛ لأن ضروبه أربعة: حلوبة، وركـوبة، وأكولة، وحـمولة، والإبل تجمع هذه الخلال الأربع؛ فكانت النعمـة بها أعم، وظهور القدرة فيها أتم، وقال الحسن: إنما خصها الله بالذكر لأنها تأكل النـوى والقَتّ، وتخرج اللبن، وسئل الحسن أيضا عنهـا وقالوا: الفيل أعظم في الأعجوبة: فقال: العرب بعيدة العهد بالفيل، ثم هو خنزير لا يؤكل لحمه، ولا يركب ظهره، ولا يحلب دره [١]، وكـان شـريح يقـول: اخـرجوا بنـا إلى الكناسـة حـتى ننظر إلى الإبل كـيف خلقت [٢]، والإبل: لا واحد لها من لفظهـا، وهي مؤنثة؛ لأن أسماء الجمـوع التي لا واحد لها من لفظها، إذا كانت لغير الآدميين، فالتأنيث لها لازم، وإذا صغرتها دخلتها الهاء، فقلت: أبيلة وغنيمه، ونحو ذلك، وربما قالوا للإبل: إبل، بسكون الباء للتخفيف، والجمع: آبال.

﴿ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ أي رفعت عن الأرض بلا عـمد، وقيل: رفـعت، فلا ينالها شيء، ﴿ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ أي كيف نصبت على الأرض، بحيث لا تزول؛ وذلك أن الأرض لما دحيـت مادت، فأرسـاها بالجبـال، كمـا قال: ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴾ [الأنبياء: ٣١]، ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ أي بسطت ومدت، وقـال أنس: صليت خلف علي رضي الله عنه، فقرأ «كيف خلقت» و « رفعتُ » و « نصبتُ » و « سطحتُ »، بضم التاءات [٣]؛ أضاف الضمير إلى الله تعال ى، وبه كان يقرأ محمد بن السميقع وأبو العالية؛ والمفعول محذوف، والمعنى خلقتـها، وكذلك سـائرها، وقرأ الحسن وأبو حـيوة وأبو رجاء « سُطِّحَتْ » بتـشديد الطاء وإسكان التاء، وكذلك قرأ الجـماعة، إلا أنهم خففوا الطاء، وقدم الإبل في الذكر، ولو قـدم غيرها لجاز، قـال القشـيري: وليس هذا مما يطلب فـيه نـوع حكمة، وقـد قيل: هو أقـرب إلى الناس في حق العرب، لكثرتها عـندهم، وهم من أعرف الناس بها، وأيضا: مرافق الإبل أكثـر من مرافق الحيوانات الأخر؛ فهي مـأكولة، ولبنها مشـروب، وتصلح للحمل والركوب، وقطع المسـافات البعيـدة عليها، والصبر على العطش، وقلة العلف، وكـثرة الحمل، وهي معظم أموال العرب، وكـانوا يسيرون على الإبل منفردين مستـوحشين عن الناس، ومن هذا حاله تفكر فيما يحضره، فـقد ينظر في مركوبه، ثم يمد بصره إلى السـماء ثم إلى الأرض، فـأمروا بالنظر في هذه الأشيـاء، فإنها أدل دليـل على الصانع المختار القادر.

---

(١) كذا في تفسير البغوي (٨/ ٤١٠).

(٢) في إسناده مجهول: فقد رواه أبو إسحاق عمَّن سمع شريحاً كما في تفسير الطبري (٣٠/ ٧٦).
والكُناسة: إمـا أن يكون أراد بها مكان القـمامة. أو مـحلة كان بنو أسد وبنو تميم يـطرحون بها كناسـتهم في الكوفة معجم البلدان (٤/ ٥٤٦).

(٣) هذه قراءات غير متواترة.

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۝ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ۝ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝﴾

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ﴾ أي فعظهم يا محمد وخوفهم، ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ أي واعظ، ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ أي بمسلط عليهم فتقتلهم، ثم نسختها آية السيف، وقرأ هارون الأعور: «بِمُسَيْطَرٍ» بفتح الطاء، و﴿الْمُسَيْطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٧]، وهي لغة تميم، وفي «الصحاح» المسيطر والمصيطر: المسلِّط على الشيء، ليشرف عليه، ويتعهد أحواله، ويكتب عمله، وأصله من السطر، لأن من معنى السطر ألا يتجاوز، فالكتاب مسطر، والذي يفعله مسطر ومسيطر؛ يقال: سيطرت علينا، وقال تعالى: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾، وسطره أي صرعه، ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ استثناء منقطع، أي لكن من تولى عن الوعظ والتذكير، ﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ وهي جهنم الدائم عذابها، وإنما قال: ﴿الْأَكْبَرَ﴾ لأنهم عذبوا في الدنيا بالجوع والقحط والأسر والقتل، ودليل هذا التأويل قراءة ابن مسعود ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۝٢٣ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ﴾ [1]، وقيل: هو استثناء متصل، والمعنى: لست بمسلط إلا على من تولى وكفر، فأنت مسلط عليه بالجهاد، والله يعذبه بعد ذلك العذاب الأكبر، فلا نسخ في الآية على هذا التقدير، وروي أن عليا أتى برجل ارتد، فاستتابه ثلاثة أيام، فلم يعاود الإسلام، فضرب عنقه، وقرأ ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾، وقرأ ابن عباس وقتادة: «ألا» على الاستفتاح والتنبيه، كقول امرئ القيس:

ألا رُبَّ يوم لك منهن صالح

و ﴿مَن﴾ على هذا: للشرط، والجواب ﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ﴾ والمبتدأ بعد الفاء مضمر، والتقدير: فهو يعذبه الله، لأنه لو أريد الجواب بالفعل الذي بعد الفاء لكان: إلا من تولى وكفر يعذبه الله، ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ أي رجوعهم بعد الموت، يقال: آب يؤوب؛ أي رجع، قال عبيد:

وكلُّ ذي غيبةٍ يؤوب وغائبُ الموتِ لا يؤوب

وقرأ أبو جعفر «إِيَّابَهُم» بالتشديد [2]، قال أبو حاتم: لا يجوز التشديد، ولو جاز لجاز مثله في الصيام والقيام، وقيل: هما لغتان بمعنى، الزمخشري: وقرأ أبو جعفر المدني: «إِيَّابُهُم» بالتشديد؛ ووجهه أن يكون فيعالا: مصدر أيب، قيل: من الإياب، أو أن يكون أصله إوابا فعالا من أوب، ثم قيل: إيوابا كديوان في دوان، ثم فعل [به] ما فعل بأصل سيد ونحوه.

---

(١) إما أن تكون قراءة تفسيرية وإلا فهي شاذة، وانظر: المحرر الوجيز (١٦/ ٢٩١) لابن عطية ـ رحمه الله.

(٢) هي قراءة متواترة: كما في تقريب النشر (ص١٨٨).

سـورة الفجر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝ ﴾

قوله تعالى ﴿وَالْفَجْرِ﴾ أقسم بالفجر، ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣﴾ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ أقسام خمسة، واختلف في ﴿الْفَجْرِ﴾، فقال قوم: الفجر هنا: انفجار الظلمة عن النهار من كل يوم؛ قاله علي وابن الزبير وابن عباس رضي الله عنهم [١]، وعن ابن عباس أيضا: أنه النهار كله، وعبر عنه بالفجر لأنه أوله [٢]، وقال ابن محيصن عن عطية عن ابن عباس: يعني الفجر يوم المحرم [٣]، ومثله قال قتادة، قال: هو فجر أول يوم من المحرم، منه تنفجر السنة، وعنه أيضا: صلاة الصبح، وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال ﴿وَالْفَجْرِ﴾: يريد صبيحة يوم النحر؛ لأن الله تعالى جل ثناؤه جعل لكل يوم ليلة قبله؛ إلا يوم النحر لم يجعل له ليلة قبله ولا ليلة بعده؛ لأن يوم عرفة له ليلتان: ليلة قبله وليلة بعده، فمن أدرك الموقف ليلة بعد عرفة، فقد أدرك الحج إلى طلوع الفجر، فجر يوم النحر [٤]، وهذا قول مجاهد، وقال عكرمة ﴿وَالْفَجْرِ﴾ قال: انشقاق الفجر من يوم جمع، وعن محمد بن كعب القرظي ﴿وَالْفَجْرِ﴾ آخر أيام العشر، إذا دفعت من جمع، وقال الضحاك: فجر ذي الحجة، لأن الله تعالى قرن الأيام به فقال: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ أي: ليال عشر من ذي الحجة [٥]، وكذا قال مجاهد والسدي والكلبي في قوله: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ هو عشر ذي الحجة [٦]، وقاله ابن عباس، وقال مسروق هي العشر التي ذكرها الله في قصة موسى عليه السلام ﴿وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ [الأعراف: ١٤٢]، وهي أفضل أيام السنة، وروى أبو الزبير عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ قال: « عشر الأضحى» [٧] فهي ليال عشر على هذا القول؛ لأن ليلة يوم النحر داخلة فيه، إذ قد خصها الله بأن جعلها موقفا لمن لم يدرك الوقوف يوم عرفة، وإنما نكرت ولم تعرف لفضيلتها على غيرها، فلو عرفت لم تستقل بمعنى الفضيلة الذي في التنكير، فنكرت من بين ما أقسم به للفضيلة التي ليست لغيرها، والله أعلم، وعن ابن عباس أيضا: هي العشر الأواخر من رمضان؛ وقاله الضحاك، وقال ابن عباس أيضا ويمان والطبري: هي العشر الأول من المحرم التي عاشرها يوم

(١، ٢) صحيح: قول ابن عباس رواه الحاكم بسند صحيح (٢/ ٥٦٨) في المستدرك، وبه رواه البيهقي (٣/ ٣٥٢) في شُعب الإيمان، والطبري (٣٠/ ١٨٠) في تفسيره.

(٣) ضعيف: لضعف عطية العَوْفي، وكذا رواه الطبري (٣٠/ ١٨١) من طريق العوفيين.

(٤) إن كان عطاء هذا هو الخراساني فالحديث ضعيف وإن كان ابن رباح فهو صحيح وانظر السابق.

(٥، ٦) انظر هذه الأقوال عند السيوطي (٦/ ٥٧٢) في الدر المنثور.

(٧) ضعفه الألباني: النسائي (١١٦٧٢) في الكبرى، وانظر: ضعيف الجامع (٣٨٦٢).

عاشوراء، وعن ابن عباس ﴿وَلَيَالِ عَشْرٍ﴾ بالإضافة يريد: وليالي أيام عشر (١).

﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝﴾

الشفع: الاثنان، والوتر: الفرد، واختلف في ذلك؛ فروي مرفوعا عن عمران بن الحصين عن النبي ﷺ أنه قال «الشفع والوتر: الصلاة، منها شفع، ومنها وتر» (٢)، وقال جابر بن عبد الله: قال النبي ﷺ: ﴿وَالْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ قال: «هو الصبح، وعشر النحر، والوتر يوم عرفة، والشفع: يوم النحر» (٣)، وهو قول ابن عباس وعكرمة، واختاره النحاس، وقال: حديث أبي الزبير عن جابر هو الذي صح عن النبي ﷺ، وهو أصح إسنادا من حديث عمران بن حصين (٤)، فيوم عرفة وتر، لأنه تاسعها، ويوم النحر شفع لأنه عاشرها، وعن أبي أيوب قال: سئل النبي ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ فقال: «الشفع: يوم عرفة ويوم النحر، والوتر ليلة يوم النحر» (٥)، وقال مجاهد وابن عباس أيضا: الشفع خَلْقُهُ، قال الله تعالى ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [النبأ: ٨] والوتر هو الله عز وجل، فقيل لمجاهد: أترويه عن أحد؟ قال: نعم، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ (٦)، ونحوه قال محمد بن سيرين ومسروق وأبو صالح وقتادة، قالوا: الشفع: الخلق (٧)، قال الله تعالى ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩]: الكفر والإيمان، والشقاوة والسعادة، والهدى والضلال، والنور والظلمة، والليل والنهار، والحر والبرد، والشمس والقمر، والصيف والشتاء، والسماء والأرض، والجن والإنس، والوتر: هو الله عز وجل، قال جل ثناؤه ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ٢]، وقال النبي ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسما، والله وتر يحب الوتر» (٨)، وعن ابن عباس أيضا: الشفع: صلاة الصبح والوتر: صلاة المغرب، وقال الربيع بن أنس وأبو العالية: هي صلاة المغرب، الشفع فيها ركعتان، والوتر الثالثة، وقال ابن الزبير: الشفع: يوما منى: الحادي عشر، والثاني عشر، والثالث عشر الوتر؛ قال الله تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٠٣]، وقال الضحاك: الشفع: عشر ذي الحجة، والوتر: أيام منى الثلاثة، وهو قول عطاء، وقيل: إن الشفع والوتر: آدم وحواء؛ لأن آدم كان فردا فشفع بزوجته حواء، فصار شفعا بعد

---

(١) واختيار العلماء ومنهم الطبري أنها عشر ذى الحجة، انظر تفسير الطبري (٣٠/ ١٨٢)، والبغوي (٨/ ٤١٢) في تفسيره، وفتح القدير (٧/ ٤٨٣) للشوكاني.

(٢) ضعيف: الترمذي (٣٣٤٢) في التفسير وضعفه الألباني هناك، ورواه أحمد (٤/ ٤٣٧)، ٤٤٢) في المسند.

(٣، ٤) ضعيف: انظر النسائي (١١٦٧٢) في الكبرى، وانظر: ضعيف الجامع (٣٨٦٢)، والهيثمي (٧/ ١٣٧) في المجمع وعزاه للبزار وأحمد، وقال: «ورجالهما رجال الصحيح غير عياش بن عقبة وهو ثقة».

وحديث عمران ضعيف رواه الترمذي (٣٣٥٣) في التفسير.

(٥) ضعيف جدًا إن لم يكن موضوعًا: الهيثمي (٧/ ١٣٧) في المجمع، وقال: «رواه الطبراني في حديث طويل، وفيه واصل بن السائب وهو متروك».

(٦) لم أجده إلا موقوفًا: الطبري بسند صحيح (٣٠/ ١٨٣) في تفسيره.

(٧) هذه الأسانيد كلها عند الطبري (٣٠/ ١٨٣) في تفسيره، والبغوي (٧/ ٤٨٣)، والسيوطي (٦/ ٥٨١ ـ ٥٨٣) في الدر المنثور.

(٨) متفق عليه: البخاري (٧٣٩٢) في التوحيد، ومسلم (٢٦٧٧) في الذكر والدعاء.

وتر، رواه ابن أبي نجيح، وحكاه القشيري عن ابن عباس، وفي رواية: الشفع: آدم وحواء، والوتر هو الله تعالى، وقيل: الشفع والوتر: الخلق؛ لأنهم شفع ووتر، فكأنه أقسم بالخلق.

وقد يقسم الله تعالى بأسمائه وصفاته لعلمه، ويقسم بأفعاله لقدرته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ﴾ [الليل: ٣]، ويقسم بمفعولاته، لعجائب صنعه؛ كما قال: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ [الشمس: ١]، ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ [الشمس: ٥]، ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ [الطارق: ١]، وقيل: الشفع: درجات الجنة، وهي ثمان، والوتر، دركات النار؛ لأنها سبعة، وهذا قول الحسين بن الفضل؛ كأنه أقسم بالجنة والنار، وقيل: الشفع: الصفا والمروة، والوتر: الكعبة، وقال مقاتل بن حيان: الشفع: الأيام والليالي، والوتر: اليوم الذي لا ليلة بعده، وهو يوم القيامة، وقال سفيان بن عيينه: الوتر: هو الله، وهو الشفع أيضا؛ لقوله تعالى ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]، وقال أبو بكر الوراق: الشفع: تضاد أوصاف المخلوقين: العز والذل، والقدرة والعجز، والقوة والضعف، والعلم والجهل، والحياة والموت، والبصر والعمى، والسمع والصمم، والكلام والخرس، والوتر: انفراد صفات الله تعالى: عز بلا ذل، وقدرة بلا عجز، وقوة بلا ضعف، وعلم بلا جهل، وحياة بلا موت، وبصر بلا عمى، وكلام بلا خرس، وسمع بلا صمم، وما وازاها، وقال الحسن: المراد بالشفع والوتر: العدد كله؛ لأن العدد لا يخلو عنهما، وهو إقسام بالحساب، وقيل: الشفع: مسجدا مكة والمدينة، وهما الحرمان، والوتر: مسجد بيت المقدس [(١)]، وقيل: الشفع: القران بين الحج والعمرة، أو التمتع بالعمرة إلى الحج، والوتر: الإفراد فيه، وقيل: الشفع: الحيوان؛ لأنه ذكر وأنثى، والوتر: الجماد، وقيل: الشفع: ما ينمي، والوتر: ما لا ينمي، وقيل غير هذا، وقرأ ابن مسعود وأصحابه والكسائي وحمزة وخلف « والوِتر » بكسر الواو، والباقون « بفتح الواو» [(٢)]، وهما لغتان بمعنى واحد، وفي « الصحاح»: الوِتر بالكسر: الفرد، والوَتر بفتح الواو: الذحل، هذه لغة أهل العالية، فأما لغة أهل الحجاز فبالضد منهم، فأما تميم فبالكسر فيهما.

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ۝ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ۝ ﴾

قوله تعالى ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ وهذا قسم خامس، وبعد ما أقسم بالليالي العشر على الخصوص، أقسم بالليل على العموم، ومعنى ﴿يَسْرِ﴾ أي: يُسرى فيه؛ كما يقال: ليل نائم، ونهار صائم، قال:

لقد لمتنا يا أمّ غيلان في السّرى ونِمت وَمَا لَيلُ المطي بِنَائِمِ

ومنه قوله تعالى ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣]، وهذا قول أكثر أهل المعاني، وهو قول الثعلبي والأخفش، وقال أكثر المفسرين: معنى ﴿يَسْرِ﴾: سار فذهب، وقال قتادة وأبو العالية: جاء وأقبل، وروي عن إبراهيم ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ قال: إذا استوى، وقال عكرمة والكلبي ومجاهد ومحمد بن كعب في قوله ﴿وَاللَّيْلِ﴾: هي ليلة المزدلفة خاصة؛ لاختصاصها باجتماع الناس فيها لطاعة الله، وقيل: ليلة القدر؛ لسراية الرحمة فيها، واختصاصها بزيادة الثواب فيها، وقيل: إنه أراد عموم الليل كله.

---

(١) غريب: رواه البغوي (٧/ ٤٨٣) في تفسيره.

(٢) قراءتان متواترتان: كما في تقريب النشر (ص١٨٨).

قلت: وهو الأظهر، كما تقدم، والله أعلم، وقرأ ابن كثير وابن محيصن ويعقوب : «يسري» بإثبات الياء في الحالين (١)، على الأصل؛ لأنها ليست بمجزومة، فثبتت فيها الياء، وقرأ نافع وأبو عمرو بإثباتها في الوصل، وبحذفها في الوقف، وروي عن الكسائي، قال أبو عبيد: كان الكسائي يقول مرة بإثبات الياء في الوصل، وبحذفها (٢)في الوقف اتباعا للمصحف، ثم رجع إلى حذف الياء في الحالين جميعا؛ لأنه رأس آية، وهي قراءة أهل الشام والكوفة، واختيار أبي عبيد، اتباعا للخط؛ لأنها وقعت في المصحف بغير ياء، قال الخليل: تسقط الياء منها اتفاقا لرؤوس الآي، قال الفراء: قد تحذف العرب الياء، وتكتفي بكسر ما قبلها، وأنشد بعضهم:

كفاك كفٌّ ما تليق درْهما جودا وأخرى تعط بالسَّيف الدَّما

يقال: فلان ما يليق درهما من جوده؛ أي: ما يمسكه، ولا يلصق به، وقال المؤرج: سألت الأخفش عن العلة في إسقاط الياء من ﴿يَسْرِ﴾ فقال: لا أجيبك حتى تبيت على باب داري سنة، فبت على باب داره سنة؛ فقال: الليل لا يَسْرِي وإنما يَسْرَى فيه؛ فهو مصروف، وكل ما صرفته عن جهته بخسته من إعرابه؛ ألا ترى إلى قوله تعالى﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٨] لم يقل بغية، لأنه صرفها عن باغية، الزمخشري: وياء «يسري» تحذف في الدرج، اكتفاء عنها بالكسرة، وأما في الوقف فتحذف مع الكسرة، وهذه الأسماء كلها مجرورة بالقسم، والجواب محذوف، وهو ليعذبن؛ يدل عليه قوله تعالى﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ إلى قوله تعالى ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ [الفجر: ١٣] وقال ابن الأنباري هو ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤] وقال مقاتل: ﴿هَلْ﴾ هنا في موضع إن؛ تقديره: إن في ذلك قسما لذي حجر، فـ﴿هَلْ﴾ على هذا في موضع جواب القسم، وقيل: هل على بابها من الاستفهام الذي معناه التقرير؛ كقولك: ألم أنعم عليك؛ إذا كنت قد أنعمت، وقيل: المراد بذلك التأكيد لما أقسم به وأقسم عليه، والمعنى: بل في ذلك مقنع لذي حجر، والجواب على هذا﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤] أو مضمر محذوف.

قوله تعالى: ﴿لِذِي حِجْرٍ﴾ أي: لذي لب وعقل، قال الشاعر:

وكيف يُرجى أن تتوب وإنما يُرجى من الفتيان من كان ذا حجر

كذا قال عامة المفسرين؛ إلا أن أبا مالك قال﴿لِذِي حِجْرٍ﴾: لذي ستر من الناس، وقال الحسن: لذي حلم، قال الفراء: الكل يرجع إلى معنى واحد: لذي حجر ، ولذي عقل، ولذي حلم (٣)، ولذي ستر؛ الكل بمعنى العقل، وأصل الحجر: المنع، يقال لمن ملك نفسه ومنعها: إنه لذو حجر؛ ومنه سمي الحجر، لامتناعه بصلابته: ومنه حجر الحاكم على فلان، أي: منعه وضبطه عن التصرف؛ ولذلك سميت الحجرة حجرة، لامتناع ما فيها بها، وقال الفراء: العرب تقول: إنه لذو حجر: إذا كان قاهرا لنفسه، ضابطا لها؛ كأنه أخذ من حجرت على الرجل (٤).

(١، ٢) قراءتان متواترتان :كما في تقريب النشر (ص١٨٨) .

(٣) صحيح إلى الحسن :الطبري (٣٠/ ١٨٧) في تفسيره .

(٤)انظر : معاني القرآن (٣/ ٢٦٠) للفراء .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝ ﴾

قوله تعالى﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ أي: مالكك وخالقك، ﴿بِعَادٍ﴾ قراءة العامة ﴿بِعَادٍ﴾ منونا، وقرأ الحسن وأبو العالية: « بعادِ إرم » مضافا، فمن لم يضف جعل ﴿إِرَمَ﴾ اسمه، ولم يصرفه؛ لأنه جعل عادا اسم أبيهم، وإرم اسم القبيلة؛ وجعله بدلا منه، أو عطف بيان، ومن قرأه بالإضافة ولم يصرفه جعله اسم أمهم، أو اسم بلدتهم، وتقديره: بعاد أهل إرم، كقوله﴿واسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] ولم تنصرف - قبيلة كانت أو أرضا - للتعريف والتأنيث، وقراءة العامة ﴿إِرَمَ﴾ بكسر الهمزة، وعن الحسن أيضًا: «أَرَمَ» مفتوحتين، وقرئ «بعادِ إرْم» بسكون الراء، على التخفيف؛ كما قرئ ﴿بورِقكم﴾ [الكهف: ١٩] ، وقرئ: ﴿بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ بإضافة ﴿إِرَمَ﴾ إلى ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾، والإرم: العلم، أي: بعاد أهل «أعلام ذات العباد»، وقرئ ﴿بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ أي: جعل اللّه ذات العماد رميمًا، وقرأ مجاهد والضحاك وقتادة: «أَرَمَ» بفتح الهمزة، قال مجاهد: من قرأ بفتح الهمزة شبههم بالآرام، التي هي الأعلام [١]، واحدها: أرم، وفي الكلام تقديم وتأخير؛ أي: والفجر وكذا وكذا إن ربك لبالمرصاد ألم تر، أي: ألم ينته علمك إلى ما فعل ربك بعاد، وهذه الرؤية رؤية القلب، والخطاب للنبي ﷺ والمراد عام، وكان أمر عاد وثمود عندهم مشهورا؛ إذ كانوا في بلاد العرب، وحجر ثمود موجود اليوم، وأمر فرعون كانوا يسمعونه من جيرانهم من أهل الكتاب، واستفاضت به الأخبار، وبلاد فرعون متصلة بأرض العرب، وقد تقدم هذا المعنى في سورة «البروج» وغيرها ﴿بِعَادٍ﴾ أي: بقوم عاد، فروى شهر بن حوشب عن أبي هريرة قال: إن كان الرجل من قوم عاد ليتخذ المصراع من حجارة، ولو اجتمع عليه خمسمائة من هذه الأمة لم يستطيعوا أن يقلوه، وإن كان أحدهم ليدخل قدمه في الأرض فتدخل فيها.

و﴿إِرَمَ﴾ قيل هو سام بن نوح؛ قاله ابن إسحاق ، وروى عطاء عن ابن عباس - وحكى عن ابن إسحاق أيضا - قال: عاد بن إرَم، فإرَمُ على هذا أبو عاد، وعاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح، وعلى القول الأول: هو اسم جد عاد، قال ابن إسحاق: كان سام بن نوح له أولاد، منهم إرم ابن سام، وأرفخشذ بن سام، فمن ولد إرم بن سام العمالقة والفراعنة والجبابرة والملوك الطغاة والعصاة، وقال مجاهد: ﴿إِرَمَ﴾ أمة من الأمم [٢]، وعنه أيضا: أن معنى إرم: القديمة، ورواه ابن أبي نجيح، وعن مجاهد أيضا أن معناها القوية، وقال قتادة: هي قبيلة من عاد [٣]، وقيل: هما عادان، فالأولى هي إرم؛ قال اللّه عز وجل﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَىٰ﴾ [النجم: ٥٠] فقيل لعقب عاد بن عوص ابن إرم بن سام بن نوح: عاد؛ كما يقال لبني هاشم: هاشم، ثم قيل للأولين منهم: عاد الأولى، وإرم: تسمية لهم باسم جدهم، ولمن بعدهم: عاد الأخيرة، قال ابن الرقيات:

---

(١)قال السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٥٨٣) هذا التفسير على قراءة شاذة :«أرَّم» بفتحتين وتشديد الراء على أنه فعل ماض، وذات بفتح التاء مفعوله .

(٢) ضعيف إليه :الطبري (٣٠/ ١٨٨) في تفسيره .

(٣) صحيح إلى قتادة :الطبري (٣٠/ ١٨٨) في تفسيره .

مَجْدا تَليدا بناه أولُهُم أدرك عَادا وقبله إرمَا

وقال معمر﴿إِرَمَ﴾: إليه مجمع عاد وثمود، وكان يقال: عاد إرم، وعاد ثمود، وكانت القبائل تنتسب إلى إرم، ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ قال ابن عباس في رواية عطاء: كان الرجل منهم طوله خمسمائة ذراع، والقصير منهم طوله ثلاثمائة ذراع بذراع نفسه، وروي عن ابن عباس أيضا أن طول الرجل منهم كان سبعين ذراعا: ابن العربي: وهو باطل (١)؛ لأن في الصحيح: «إن الله خلق آدم طوله ستون ذراعا في الهواء، فلم يزل الخلق ينقص إلى الآن» (٢)، وزعم قتادة: أن طول الرجل منهم اثنا عشر ذراعا (٣)، قال أبو عبيدة﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ ذات الطول، يقال: رجل معمد إذا كان طويلا، ونحوه عن ابن عباس (٤)ومجاهد (٥)، وعن قتادة أيضا: كانوا عمادا لقومهم؛ يقال: فلان عميد القوم وعمودهم: أي: سيدهم، وعنه أيضًا: قيل لهم ذلك، لأنهم كانوا ينتقلون بأبياتهم للانتجاع، وكانوا أهل خيام وأعمدة، ينتجعون الغيوث، ويطلبون الكلأ، ثم يرجعون إلى منازلهم (٦)، وقيل: ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ أي: ذات الأبنية المرفوعة على العمد، وكانوا ينصبون الأعمدة، فيبنون عليها القصور، قال ابن زيد: ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ يعني إحكام البنيان بالعمد، وفي «الصحاح»: والعماد: الأبنية الرفيعة، تذكر وتؤنث، قال عمرو بن كلثوم:

ونحنُ إذًا عِمادُ الحي خَرَّت على الأحفاضِ نمنعُ مَنْ يَلينا (٧)

والواحدة عمادة، وفلان طويل العماد: إذا كان منزله معلما لزائره، والأحفاض: جمع حفض - بالتحريك - وهو متاع البيت إذا هميء ليحمل؛ أي: خرت على المتاع، ويروى: عن الأحفاض، أي: خرت عن الإبل التي تحمل خرثي البيت، وقال الضحاك: ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ ذات القوة والشدة (٨)، مأخوذ من قوة الأعمدة؛ دليله قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] وروى عوف عن خالد الربعي: ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ قال: هي دمشق (٩)، وهو قول عكرمة وسعيد المقبري (١٠)، رواه ابن وهب وأشهب عن مالك، وقال محمد بن كعب القرظي: هي الإسكندرية (١١).

﴿ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝٨﴾

قوله تعالى: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ الضمير في ﴿مِثْلُهَا﴾ يرجع إلى القبيلة، أي: لم يخلق

(١) نعم هو باطل :أحكام القرآن (٤/ ١٩٣٠) لابن العربي المالكي .

(٢) متفق عليه :قطعة من حديث البخاري (٣٣٢٦) في الأنبياء ، ومسلم (٢٨٤١) في الجنة ، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ، والبخاري (٦٢٢٧) في الاستئذان .

(٣)هذا مجرد زعم وإن صحّ السند. انظر : الطبري (٣٠/ ١٩٠) في التفسير وهي مبالغة واضحة .

(٤، ٥) ضعيفان :الطبري (٣٠/ ١٩٠) في تفسيره .

(٦)صحيح إليه : الطبري (٣٠/ ١٩٠) في تفسيره .

(٧) صحيح إليه :الطبري (٣٠/ ١٩٠) في تفسيره .

(٨) حسن إليه :السابق نفسه .

(٩)عزاه السيوطي لعبد بن حميد كما في الدر المنثور (٦/ ٥٨٣) .

قلت : ولا يصح .

(١٠، ١١)كذا في الدر المنثور (٦/ ٥٨٣) وعزا هذه الآثار لعبد بن حميد ، وابن عساكر .

مثل القبيلة في البلاد: قوة وشدة، وعظم أجساد، وطول قامة؛ عن الحسن وغيره، وفي حرف عبدالله «التي لم يخلق مثلهم في البلاد» [١]، وقيل: يرجع للمدينة، والأول أظهر، وعليه الأكثر، حسب ما ذكرناه، ومن جعل ﴿إِرَمَ﴾ مدينة قدر حذفا؛ المعنى: كيف فعل ربك بمدينة عاد إرم، أو بعد صاحبه إرم، وإرم على هذا: مؤنثة معرفة [فلذلك لم تنصرف]، واختار ابن العربي [٢]: أنها دمشق، لأنه ليس في البلاد مثلها، ثم أخذ ينعتها بكثرة مياهها وخيراتها، ثم قال: وإن في الإسكندرية لعجائب، لو لم يكن إلا المنارة، فإنها مبنية الظاهر والباطن على العمد، ولكن لها أمثال، فأما دمشق فلا مثل لها، وقد روى معن عن مالك أن كتابا وجد بالإسكندرية، فلم يدر ما هو؟ فإذا فيه: أنا شداد بن عاد، الذي رفع العماد، بنيتها حين لا شيب ولا موت، قال مالك: إن كان لتمر بهم مائة سنة لا يرون فيها جنازة، وذكر عن ثور بن زيد [٣] أنه قال: أنا شداد بن عاد، وأنا رفعت العماد، وأنا الذي شددت بذراعي بطن الوادي، وأنا الذي كنزت كنزاً على سبعة أذرع، لا يخرجه إلا أمة محمد ﷺ، وروي أنه كان لعاد ابنان: شداد وشديد؛ فملكا وقهرا، ثم مات شديد، وخلص الأمر لشداد فملك الدنيا، ودانت له ملوكها؛ فسمع بذكر الجنة، فقال: أبني مثلها، فبنى إرم في بعض صحاري عدن في ثلاثمائة سنة، وكان عمره تسعمائة سنة، وهي مدينة عظيمة، قصورها من الذهب والفضة، وأساطينها [٤] من الزبرجد والياقوت، وفيها أصناف الأشجار والأنهار المطردة [٥]، ولما تم بناؤها سار إليها بأهل مملكته، فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة، بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا، وعن عبدالله بن قلابة: أنه خرج في طلب إبل له، فوقع عليها، فحمل ما قدر عليه مما ثم، وبلغ خبره معاوية فاستحضره، فقص عليه، فبعث إلى كعب فسأله، فقال: هي إرم ذات العماد، وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك، أحمر أشقر قصير، على حاجبه خال، وعلى عقبه خال، يخرج في طلب إبل له؛ ثم التفت فأبصر ابن قلابة، وقال: هذا والله ذلك الرجل، وقيل: أي: لم يخلق مثل أبنية عاد المعروفة بالعمد، فالكناية للعماد، والعماد على هذا: جمع عمد، وقيل: الإرم: الهلاك؛ يقال: أرم بنو فلان: أي: هلكوا؛ وقاله ابن عباس، وقرأ الضحاك: «أَرَمَّ ذات العماد» [٦]؛ أي: أهلكهم، فجعلهم رميمًا.

﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩﴾

ثمود: هم قوم صالح، و﴿جَابُوا﴾: قطعوا، ومنه: فلان يجوب البلاد، أي: يقطعها، وإنما سمي جيب القميص لأنه جيب؛ أي: قطع، قال الشاعر وكان قد نزل على ابن الزبير بمكة، فكتب له بستين وسقا يأخذها بالكوفة، فقال:

---

(١) لعلها مجرد قراءة تفسيرية .
(٢) أحكام القرآن (٤/ ١٩٣١) للقاضي ابن العربي المالكي .
(٣) ذكرها ابن أبي حاتم (١٢/ ٣٩٩) في تفسيره .
(٤) الأساطين : ج (أسطوانة) وهي العمود أو السارية ـ كما في الصحاح .
(٥) المطردة : الجارية اللسان «طرد» .
(٦) سبق تضعيف هذه الرواية .

رَاحت رَواحًا قلوصي وهـي حامدة آل الزبيـر ولم تَعدل بهـم أحَـدا
راحت بستين وسقا في حقيبتهـا ما حملت حَمْلها الأدنى ولا السَّددا
ما إن رأيت قلوصًا قبلها حمـلت ستين وسقًا ولا جابـت به بلـدا

أي: قطعت، قال المفسرون: أول من نحت الجبال والصور والرخام: ثمود، فبنوا من المدائن ألفًا وسبعمائة مدينة كلها من الحجارة، ومن الدور والمنازل ألفي ألف وسبعمائة ألف، كلها من الحجارة، وقد قال تعالى ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٢]، وكانوا لقوتهم يخرجون الصخور، وينقبون الجبال، ويجعلونها بيوتا لأنفسهم، ﴿بِالْوَادِ﴾ أي: بوادي القرى؛ قاله محمد بن إسحاق، وروى أبو الأشهب عن أبي نضرة قال: أتى رسول الله ﷺ في غزاة تبوك على وادي ثمود، وهو على فرس أشقر، فقال: «أسرعوا السير، فإنكم في واد ملعون» (١)، وقيل: الوادي بين جبال، وكانوا ينقبون في تلك الجبال بيوتًا ودورًا وأحواضًا، وكل منفرج بين جبال أو تلال يكون مسلكًا للسيل ومنفذا فهو واد.

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝ ﴾

أي: الجنود والعساكر والجموع والجيوش التي تشد ملكه؛ قاله ابن عباس، وقيل: كان يعذب الناس بالأوتاد، ويشدهم بها إلى أن يموتوا؛ تجبرًا منه وعتوًا، وهكذا فعل بامرأته آسية وماشطة ابنته؛ حسب ما تقدم في آخر سورة «التحريم»، وقال عبد الرحمن بن زيد: كانت له صخرة ترفع بالبكرات، ثم يؤخذ الإنسان فتوتد له أوتاد الحديد، ثم يرسل تلك الصخرة عليه فتشدخه، وقد مضى في سورة «ص» من ذكر أوتاده ما فيه كفاية، والحمد لله.

﴿ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝ ﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ﴾ يعني: عادًا وثمودًا وفرعون ﴿طَغَوْا﴾ أي: تمردوا وعتوا وتجاوزوا القدر في الظلم والعدوان، ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ أي: الجور والأذى، و﴿الَّذِينَ طَغَوْا﴾ أحسن الوجوه فيه أن يكون في محل النصب على الذم، ويجوز أن يكون مرفوعًا على: هم الذين طغوا، أو مجرورًا على وصف المذكورين: عاد، وثمود، وفرعون، ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ﴾ أي: أفرغ عليهم وألقى؛ يقال: صب على فلان خلعة، أي: ألقاها عليه، وقال النابغة:

فَصَبَّ عليه اللهُ أحسنَ صُنْعه وكان له بين البَرِية ناصرا

﴿سَوْطَ عَذَابٍ﴾ أي: نصيب عذاب، ويقال: شدته؛ لأن السوط كان عندهم نهاية ما يعذب به، قال الشاعر:

ألم تر أن اللهَ أظهر دِينَهُ وَصَبَّ على الكفارِ سَوْطَ عَذابِ

وقال الفراء: وهي كلمة تقولها العرب لكل نوع من أنواع العذاب، وأصل ذلك: أن السوط

(١) مرسل: أرسله أبو نضرة إلى النبي ﷺ، وهو تابعي، وقال الذهبي (٧/ ٢٨٧) في السير: «هذا مرسل جيد».
قلت: وهو في الجامع الكبير، عن أُبيّ من رواية ابن منيع كما في البيان والتعريف للحسيني.
وانظر: المطالب العالية (٣٤٥٨) للحافظ ابن حجر ـ رحمه الله.

هو: عذابهم الذي يعـذبون به، فجرى لكل عذاب؛ إذ كـان فيه عندهم غاية العذاب، وقـيل: معناه عذاب يخالط اللحم والدم؛ من قولهم: ساطه يسوطه سوطا أي: خلطه، فهو سائط، فالسوط: خلط الشيء بعضه ببعض؛ ومنه سمي المسواط، وسوطه أي: خلطه، وأكثر ذلك يقال: سوط فلان أموره، قال:

فسطها ذَميمُ الرأي غير موفق فَلَسْتُ على تَسويطها بمعانِ

قال أبو زيد: يقـال أموالهم سويطة بينهم؛ أي: مـختلطة، حكاه عنه يعقوب، وقـال الزجاج: أي: جعل سوطهم الذي ضربـهم به العذاب، يقال: ساط دابته يسوطها؛ أي: ضـربها بسوطه، وعن عمرو بن عبيـد: كان الحسن إذا أتى على هذه الآية قال: إن عند اللّه أسواطا كثيـرة، فأخذهم بسوط منها، وقال قتادة: كل شيء عذب اللّه تعالى به فهو سوط عذاب[١].

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾

أي: يرصد عمل كل إنسان حتى يجـازيه به؛ قاله الحسن وعكرمة[٢]، وقيل: أي: على طريق العبـاد لا يفوته أحـد، والمرصد والمرصاد: الطريق، وقـد مضى في سـورة «التوبة»[٣] والحمد لله، فروى الضـحاك عن ابن عبـاس قال: إن على جـهنم سبع قناطر، يُسأل الإنسـان عند أول قنطرة عن الإيمان، فإن جاء به تاما جاز إلى القنطرة الثانية، ثم يُسـأل عن الصلاة، فإن جاء بها جاز إلى الثالثة، ثم يُسأل عن الزكاة، فإن جاء بها جاز إلى الرابعة، ثم يُسأل عن صيام شهر رمضان، فإن جاء به جاز إلى الخامسة، ثم يُسـأل عن الحج والعمـرة، فإن جاء بهـما جـاز إلى السادسة، ثم يُسـأل عن صلة الرحم، فإن جاء بهـا جاز إلى السابعة، ثم يُسأل عن المظالم، وينادي مـناد: ألا من كانت له مظلمة فليأت؛ فيـقتص للناس منه، ويقتص له من الناس؛ فـذلك قوله عز وجل﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾[٤]، وقال الثوري: ﴿لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ يعني جهـنم؛ عليها ثلاث قناطـر: قنطرة فيهـا الرحم، وقنطرة فيـها الأمانة، وقنطرة فيها الرب تبارك وتعالى[٥].

قلت: أي: حكمه وإرادته وأمره، واللّه أعلم، وعن ابن عباس، أيضا ﴿ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ أي: يسمع ويرى[٦].

قلت: هذا قول حسن؛ يسمع أقوالهم ونجواهم، ويرى أي: يعلم أعـمالهم وأسرارهم، فيجازي كلا بعمله، وعن بعض العـرب أنه قيل له: أين ربك؟ فقال: بالمرصاد، وعن عمرو بن عـبيد أنه قرأ

(١) كذا رواه ابن أبي حاتم (١٢/ ٤٠٠) في تفسيره.
(٢) رواه الطبري (٣٠/ ١٩٤) في تفسيره.
(٣) عند الآية (٥).
(٤) ضعيف: للانقطاع بين الضحاك وابن عباس ـ رضي الله عنهما، وذكره ابن أبي حاتم مرسلاً، عن أيفع الكلاعى بسند فيه تدليس الوليد بن مسلم كما في تفسيره (١٢/ ٤٠١).
(٥) ضعيف من طريق الطبري: فيه ابن حميد وهو متهم بالكذب، وانظر: تفسير الطبري (٣٠/ ١٩٤).
(٦) كذا في تفسير ابن أبي حاتم (١٢/ ٤٠١).

هذه السورة عند المنصور حتى بلغ هذه الآية، فقال﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ يا أبا جعفر قال الزمخشري: عرض له في هذا النداء، بأنه بعض من توعد بذلك من الجبابرة؛ فلله دره، أي: أسد فراس كان بين يديه؟ يدق الظلمة بإنكاره، ويقصع أهل الأهواء والبدع باحتجاجه.

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ۝١٦﴾

قوله تعالى﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ﴾ يعني الكافر، قال ابن عباس: يريد عتبة بن ربيعة وأبا حذيفة بن المغيرة، وقيل: أمية بن خلف، وقيل: أبي بن خلف، ﴿إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ﴾ أي: امتحنه واختبره بالنعمة، و﴿ما﴾: زائدة صلة، ﴿فَأَكْرَمَهُ﴾ بالمال، ﴿وَنَعَّمَهُ﴾ بما أوسع عليه، ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ فيفرح بذلك ولا يحمده، ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ﴾ أي: امتحنه بالفقر واختبره، ﴿فَقَدَرَ﴾ أي: ضيق ﴿عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ على مقدار البُلغة، ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ أي: أولاني هوانا، وهذه صفة الكافر الذي لا يؤمن بالبعث، وإنما الكرامة عنده والهوان بكثرة الحظ في الدنيا وقلته، فأما المؤمن فالكرامة عنده أن يكرمه الله بطاعته وتوفيقه، المؤدي إلى حظ الآخرة، وإن وسع عليه في الدنيا حمده وشكره.

قلت: الآيتان صفة كل كافر، وكثير من المسلمين يظن أن ما أعطاه الله لكرامته وفضيلته عند الله، وربما يقول بجهله: لو لم أستحق هذا لم يعطنيه الله، وكذا إن قتر عليه يظن أن ذلك لهوانه على الله، وقراءة العامة ﴿فَقَدَرَ﴾ مخففة الدال، وقرأ ابن عامر مشددا [١]، وهما لغتان، والاختيار التخفيف؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ [الطلاق: ٧]، قال أبو عمرو: ﴿قَدَرَ﴾ أي: قتر، و«قدّر» مشددا: هو أن يعطيه ما يكفيه، ولو فعل به ذلك ما قال: ﴿رَبِّي أَهَانَنِ﴾، وقرأ أهل الحرمين وأبو عمرو «رَبِّيَ» بفتح الياء في الموضعين [٢]، وأسكن الباقون، وأثبت البزي وابن محيصن ويعقوب الياء من ﴿أَكْرَمَنِ﴾، و﴿أَهَانَنِ﴾ في الحالين [٣]؛ لأنها اسم فلا تحذف، وأثبتها المدنيون في الوصل دون الوقف [٤]، اتباعا للمصحف، وخير أبو عمرو في إثباتها في الوصل أو حذفها؛ لأنها رأس آية، وحذفها في الوقف لخط المصحف، الباقون بحذفها، لأنها وقعت في الموضعين بغير ياء، والسنة ألا يخالف خط المصحف؛ لأنه إجماع الصحابة.

﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَـٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝١٨ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۝١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿كَلاَّ﴾ ردّ، أي: ليس الأمر كما يُظَن، فليس الغنى لفضله، ولا الفقر لهوانه، وإنما الفقر والغنى من تقديري وقضائي، وقال الفراء: ﴿كَلاَّ﴾ في هذا الموضع بمعنى لم يكن ينبغي للعبد أن يكون هكذا، ولكن يحمد الله عز وجل على الغنى والفقر، وفي الحديث: «يقول الله عز وجل: كلا إني لا أكرم من أكرمت بكثرة الدنيا، ولا أهين من أهنت بقلتها، إنما أكرم من أكرمت

(١ ـ ٤) قراءات متواترة: تقريب النشر (ص ١٨٨)، والإقناع (٢/ ٨١٠، ٨١١).

بطاعتي، وأهين من أهنت بمعصيتي »[١].

قوله تعالى : ﴿بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ إخبار عن مـا كانوا يصنعونه من منع اليـتيم الميراث، وأكل ماله إسـرافًا وبدارًا أن يكـبروا، وقرأ أبو عـمرو ويعـقوب: «يكرمـون»، و«يحضـون»، و«يأكلون»، و«يحبون» بالياء[٢]، لأنه تقدم ذكر الإنسان، والمراد به الجنس، فعبـر عنه بلفظ الجمع، الباقون بالتاء في الأربعة على الخطاب والمواجهة؛ كأنه قال لهم ذلك تقريعًـا وتوبيخًا، وترك إكرام اليتيم بدفعه عن حقه، وأكل ماله كـما ذكرنا، قال مقاتل: نزلت في قـدامة بن مظعون وكان يتيمًا في حـجر أمية بن خلف . ﴿وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ أي: لا يأمـرون أهليهم بإطعـام مسكين يجـيؤهم، وقـرأ الكوفيون (ولا تحاضـون) بفتح التاء والحاء والألف، أي: يحض بعضهم بعضا، وأصله تتحاضون، فحذف إحدى التـاءين لدلالة الكلام عليها، وهو اختيار أبي عبـيد، وروي عن إبراهيم والشيزري عن الكسائي والسلمي: «تُحاضـون» بضم التاء، وهو تفاعلون من الحض، وهو الحث، ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ﴾ أي: ميراث اليـتامى، وأصله الوراث من ورثت، فأبدلوا الواو تاء؛ كـما قالوا في تجاه وتخـمة وتكأة وتؤدة ونحو ذلك، وقـد تقدم، ﴿أَكْلاً لَّمًّا﴾ أي: شديدا؛ قـاله السدي، قـيل ﴿لَّمًّا﴾: جمـعا؛ من قولهم: لمـمت الطعام لما إذا أكلتـه جمعـا؛ قاله الحـسن وأبو عبـيدة، وأصل اللم في كـلام العرب. الجمع؛ يقال: لممت الـشيء ألمه لما: إذا جمعته، ومنه يقـال: لَمَّ اللّه شَعْثَهُ، أي: جـمع ما تفرق من أموره، قال النابغة:

ولستُ بمستبق أخا لا تلمه ... عَلى شعث أيّ الرِّجال المهذب

ومنه قـولهم: إن دارك لَمُومَّـة، أي: تلم الناس وتربهم وتجـمعـهم، وقـال المرناق الطائي يمدح علقمة بن سيف:

لأحَبَّني حُبَّ الصَّبي ولَمَّني ... لمَّ الهُدِيّ إلى الكريمِ الماجِد

وقال الليث: اللم الجـمع الشديد؛ ومنه حـجر ملموم، وكـتيبـة ملمومة، فـالأكل يلم الثريد، فيجمعه لقما ثم يأكـله، وقال مجاهد: يسفه سفا[٣]، وقال الحسن: يأكل نصيـبه ونصيب غيره[٤]، قال الحطيئة:

إذا كان لما يتبع الذَّم ربه ... فلا قدّس الرحمنُ تلك الطَّواحنا

يعني أنهم يجمعون في أكلهم بين نصيبـهم ونصيب غيرهم، وقال ابن زيد: هو أنه إذا أكل ماله ألم بمال غيره فـأكله، ولا يفكر: أكل من خبيث أو طيب، قال: وكـان أهل الشرك لا يورثون النساء ولا الصبيان، بل يأكلون ميراثهم مع ميـراثهم، وتراثهم مع تراثهم، وقيل: يأكلون ما جمعه الميت من الظلمة وهو عالم بذلك، فيَلُم في الأكل بين حـرامه وحلاله، ويجوز أن يذم الوارث الذي ظفر بالمال

---

(١) ليس هذا حديثًا إنما هو من رواية صحيحة إلى قتادة كما عند الطبري (٣٠/ ١٩٥) في تفسيره والعجيب ممن قال: لم أجده، وآخر نسبه إلى الإمام مالك حديث رقم (٦) في كتاب الصدقة !!

(٢) القراءة بالياء متواترة : الإقناع (٢/ ٨١٠) .

(٣) صحيح إلى مجاهد : الطبري (٣٠/ ١٩٧) في تفسيره .

(٤) صحيح إلى الحسن : الطبري (٣٠/ ١٩٧) في تفسيره .

سهـلا، مهلا، من غيـر أن يعرق فيه جـبينه، فيسـرف في إنفاقه، ويأكله أكـلا واسعا، جامـعا بين المشتهيات من الأطعمة والأشربة والفواكه، كما يفعل الوراث البطالون.

قوله تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ أي: كثيرا، حلاله وحـرامه، والجم الكثير، يقال: جم الشيء يجم جمومًا، فهو جم وجام، ومنه جم الماء في الحوض: إذا اجتمع وكثر، وقال الشاعر:

إن تَغْفر اللهم تَغفر جَما وأيُّ عبدٍ لك لا ألما

والجُمة: المكان الذي يجتمع فـيه ماؤه، والجموم: البئر الكثيـرة الماء، والجمُومُ: المصدر؛ يقال: جم الماء يجم جموما: إذا كثر في البئر واجتمع، بعد ما استقي ما فيها.

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾﴾

قوله تـعالى: ﴿كَلَّآ﴾ أي: مـا هكذا ينبغي أن يـكون الأمر، فـهو رد لانكبـابهم على الدنيـا، وجمعهم لها؛ فإن من فعل ذلك يندم يوم تدك الأرض، ولا ينفع الندم، والدك: الكسر والدق؛ وقد تقدم، أي: زلزلت الأرض، وحـركت تحريكا بعد تحريك، وقـال الزجاج: أي: زلزلت فدك بعـضها بعضا، وقال المبرد: أي: ألصقت وذهب ارتفاعها، يقال: ناقة دكاء، أي: لا سنام لها، والجمع دُكٌّ، وقد مضى في سورة «الأعراف» و«الحاقة» القول في هذا، ويقولون: دك الشيء أي: هدم، قال:

هل غيرُ غَار دَكَّ غارًا فانهدم

﴿دَكًّا دَكًّا﴾ أي: مرة بعـد مرة؛ زلزلت فكسر بعـضها بعـضا؛ فتكسـر كل شيء على ظهرها، وقيل: دكت جبالهـا وأنشازها حتى استوت، وقيل: دكت أي: اسـتوت في الانفراش؛ فذهب دورها وقصورها وجبالها وسائر أبنيتها، ومنه سمي الدكان، لاستوائه في الانفراش، والدك: حط المرتفع من الأرض بالبسط، وهو معنى قول ابن مسعود وابن عباس: تمد الأرض مد الأديم[1].

﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ أي: أمره وقضاؤه[2]؛ قاله الحسن، وهو مـن باب حذف المضاف، وقيل: أي: جـاءهم الرب بالآيات العظيمـة؛ وهو كقـوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَـٰمِ﴾ [البقرة: ٢١٠]، أي: بظلل، وقيل: جعل مـجيء الآيات مجيئا له، تفخيـما لشأن تلك الآيات، ومنه قوله تعالى في الحديث: «يا بن آدم، مرضت فلم تعدني، واستسقيتك فلم تسقني، واستطعمتك فلم تطعمني»[3]، وقيل ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ أي: زالت الشبه ذلك اليوم، وصارت المعارف ضرورية، كما تزول الشبه والشـك عند مجيء الشيء الذي كان يشك فيـه، قال أهل الإشارة: ظهرت قـدرته واستولت، والله جل ثناؤه لا يوصف بالتحول من مكان إلى مكان، وأنى له التحول والانتقال، ولا مكان له ولا

---

(١) حسن: وقد سبق.

(٢) بل المجيء هنا على الحقيقة كما يليق بكماله وجلاله سبحانه من غير تأويل ولا تعطيل ـ كما سبق.

(٣) صحيح: مسلم (٢٥٦٩) في البر والصلة، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

أوان، ولا يجري عليه وقت ولا زمان؛ لأن في جـريان الوقت على الشيء فوت الأوقات، ومن فاته شيء فهو عاجز.

قوله تعالى : ﴿وَالْمَلَكُ﴾ أي: الملائكة، ﴿صَفًّا صَفًّا﴾ أي: صفوفا، ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ قال ابن مسعـود ومقاتل: تقاد جهنـم بسبعين ألف زمام، كل زمام بيـد سبعين ألف ملك، لها تغـيظ وزفير، حتى تنصب عن يسار العرش[١]، وفي صحيح، مسلم عن عبدالله بن مـسعود قال: قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بجهنم، لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها»[٢]، وقال أبو سعيـد الخدري: لما نزلت ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ تغير لون رسول الله ﷺ، وعـرف في وجهه، حتى اشتد علـى أصحابه، ثم قال: « أقرأنـي جبريل ﴿كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ الآية ، ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾، قال علي رضي الله عنه: قلت يا رسول الله، كيف يجاء بها؟ قال: « يؤتى بها تقاد بسبعين ألف زمام، يقود بكل زمام سبعون ألف ملك، فتشرد شردة لو تركت لأحرقت أهل الجمع ثم تعرض لي جهنم فتقول: مـا لي ولك يا محمد، إن الله قد حرم لحمك علي » فلا يـبقى أحد إلا قال نفسي نفسي إلا محمد ﷺ فإنه يقول: رب أمتي رب أمتي[٣] .

قوله تعالى ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ﴾ أي: يتعظ ويتوب، وهو الكافر، أو من همـته معظم الدنيا، ﴿وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ أي: ومن أين له الاتعاظ والتوبة وقد فرط فيها في الدنيا، ويقال: أي: ومن أين له منفعة الـذكرى، فلا بد من تقدير حـذف المضاف، وإلا فبين ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ﴾ وبين ﴿وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ تناف، قاله الزمخشري.

﴿يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾﴾

أي: في حياتي، فاللام بمعنى في، وقيل: أي: قدمت عمـلا صالحا لحياتي، أي: لحياة لا موت فيها، وقـيل: حياة أهل النار ليست هنيئـة، فكأنهم لا حياة لهم؛ فالمعنى: يا ليتني قـدمت من الخير لنجاتي من النار، فأكون فيمن له حياة هنيئة.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ﴾ أي: لا يعذب كعذاب الله أحد، ولا يوثق كوثاقه أحد، والكناية ترجع إلى الله تعالى، وهو قول ابن عبـاس والحسن، وقرأ الكسائي «لا يُعذَّبُ»، «ولا يُوثَقُ» بفتح الذال والثاء[٤]، أي: لا يعذب أحد في الدنيـا كعذاب الله الكافر يومئـذ، ولا يوثق كما يوثق الكافر، والمراد إبليس؛ لأن الدليل قام على أنه أشد الناس عـذابًا، لأجل إجرامه؛ فأطلق الكلام لأجل ما صحبه من التـفسير، وقيل: إنه أمية بن خلف؛ حكاه الفراء، يعني أنـه لا يعذب كعذاب هذا الكافر المعين أحد، ولا يوثق بالسلاسل والأغلال كوثاقه أحد؛ لتناهيه في كفره وعناده، وقيل: أي: لا يعذب

(١، ٢) صحيحان : وقد سبقا.

(٣) عزاه السيوطي (٦/ ٥٨٧) في الدر المنثور لابن مردويه عن أبي سعيد ، وعن علي أيضًا ولا أراه إلا ضعيفًا .

(٤) هي قراءة سبعية متواترة : كما في الإقناع (٢/ ٨١٠) ، وتقريب النشر (ص١٨٧) .

مكانه أحد، فلا يؤخذ منه فداء، والعذاب بمعنى التعذيب، والوثاق بمعنى الإيثاق، ومنه قول الشاعر:

وبعد عطائك المائة الرتاعا

وقيل: لا يعذب أحد ليس بكافر عذاب الكافر، واختار أبو عبيد وأبو حاتم فتح الذال والثاء، وتكون الهاء ضمير الكافر؛ لأن ذلك معروف: أنه لا يعذب أحد كعذاب اللّه، وقد روى أبو قلابة عن النبي ﷺ أنه قرأ بفتح الذال والثاء [١]، وروي أن أبا عمرو رجع إلى قراءة النبي ﷺ، وقال أبو علي: يجوز أن يكون الضمير للكافر على قراءه الجماعة؛ أي: لا يعذب أحد أحدا مثل تعذيب هذا الكافر؛ فتكون الهاء للكافر، والمراد بـ﴿أَحَدٌ﴾ الملائكة الذين يتولون تعذيب أهل النار.

﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ۝٣٠﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ لما ذكر حال من كانت همته الدنيا فاتهم اللّه في إغنائه، وإفقاره، ذكر حال من اطمأنت نفسه إلى اللّه تعالى، فسلم لأمره، واتكل عليه، وقيل: هو من قول الملائكة لأولياء اللّه عز وجل، والنفس المطمئنة: الساكنة الموقنة؛ أيقنت أن اللّه ربها، فأخبتت لذلك؛ قاله مجاهد وغيره [٢]، وقال ابن عباس: أي: المطمئنة بثواب اللّه، وعنه: المؤمنة [٣]، وقال الحسن: المؤمنة الموقنة [٤]، وعن مجاهد أيضا: الراضية بقضاء اللّه، التي علمت أن ما أخطأها لم يكن ليصيبها، وأن ما أصابها لم يكن ليخطئها [٥]، وقال مقاتل: الآمنة من عذاب اللّه، وفي حرف أبي ابن كعب «يا أيتها النفس الآمنة المطمئنة» [٦]، وقيل: التي عملت على يقين بما وعد اللّه في كتابه، وقال ابن كيسان: المطمئنة هنا: المخلصة، وقال ابن عطاء: العارفة التي لا تصبر عنه طرفة عين، وقيل: المطمئنة بذكر اللّه تعالى؛ بيانه ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٣٨]، وقيل: المطمئنة بالإيمان، المصدقة بالبعث والثواب، وقال ابن زيد: المطمئنة لأنها بشرت بالجنة عند الموت، وعند البعث، ويوم الجمع، وروى عبداللّه بن بريدة عن أبيه قال: يعني نفس حمزة، والصحيح أنها عامة في كل نفس مؤمن مخلص طائع، قال الحسن البصري: إن اللّه تعالى إذا أراد أن يقبض روح عبده المؤمن، اطمأنت النفس إلى اللّه تعالى، واطمأن اللّه إليها [٧]، وقال عمرو بن العاص: إذا توفي المؤمن أرسل اللّه إليه ملكين، وأرسل معهما تحفة من الجنة، فيقولان لها: اخرجي أيتها النفس

---

(١) كذا عند الحاكم في المستدرك (٦٦٣٥)، عن مالك بن الحويرث وفي عون المعبود وقال أبو الطيب: وجهالة الصحابي لا تقدح في الحديث وإن كان الألباني قد ضعفه (٣٩٩٧) في سنن أبي داود وسكت المنذري عنه في الترغيب، ونقل السيوطي (٦/ ٥٨٨) في الدر المنثور تصحيح الحاكم له.

(٢) صحيح إلى مجاهد: الطبري (٣٠/ ٢٠٤) في تفسيره من عدة طرق.

(٣) منقطع: بين علي بن أبي طلحة وابن عباس الطبري (٣٠/ ٢٠٤) في تفسيره.

(٤) صحيح إلى الحسن وقتادة كما في تفسير الطبري (٣٠/ ٢٠٤).

(٥) صحيح إلى مجاهد: الطبري (٣٠/ ٢٠٤) في تفسيره.

(٦) قراءة تفسيرية وإلا فهي شاذة، وانظر الكشاف (٤/ ٢١٢) للزمخشري.

(٧) رواه ابن أبي حاتم (١٢/ ٤٠٦) في تفسيره.

المطمئنة راضية مرضية ومرضيًا عنك، اخـرجي إلى روح وريحان، ورب راض غير غضبان، فتخرج كأطيب ريح المسك وجد أحد من أنفـه على ظهر الأرض، وذكر الحديث، وقال سعيد بـن جبير: قرأ رجل عند النبي ﷺ ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾، فقال أبو بكر: ما أحـسن هذا يا رسول الله فقال النبي ﷺ: « إن الملك سيقـولها لك يا أبا بكر عند الموت»(١)، وقال سـعيد بن جبـير: مات ابن عـباس بالطائف، فجـاء طائر لم ير على خلقتـه طائر قط، فدخل نعشـه، ثم لم ير خارجـا منه، فلما دفن تليت هذه الآية على شفير القبر - لا يدري من تلاها - ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾(٢)، وروى الضحاك أنها نزلت في عثمان بن عفان رضي الله عنه حين وقف بئر رومة(٣)، وقيل: نزلت في خُبيب بن عدي الذي صلبه أهل مكة، وجـعلوا وجهه إلى المدينة؛ فحول الله وجهه نحو القبلة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ أي: إلى صاحبك وجـسدك؛ قاله ابن عبـاس وعكرمة وعطاء، واختـاره الطبري؛ ودليله قراءة ابن عـباس: «فادخلي في عـبدي» على التوحيـد، فيأمـر الله تعالى الأرواح غدا أن ترجع إلى الأجساد، وقرأ ابن مسعود: «في جسد عبدي»، وقال الحسن: ارجعي إلى ثواب ربك وكـرامتـه، وقـال أبو صـالح: المعنى: ارجعـي إلى الله، وهذا عند الموت، ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ أي: في أجسـاد عبادي؛ دلـيله قراءة ابن عبـاس وابن مسعـود، قال ابن عـباس: هذا يوم القـيامـة؛ وقاله الضـحاك، والجـمهـور على أن الجنة هي دار الخلود التي هي مـسكن الأبرار، ودار الصالحـين والأخيار، ومـعنى ﴿فِي عِبَادِي﴾ أي: في الصـالحين من عبـادي؛ كمـا قال ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٩]، وقال الأخفش ﴿فِي عِبَادِي﴾ أي: في حزبي؛ والمعنى واحد، أي: انتظمي في سلكهم، ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ معهم.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم (١٢/ ٤٠٦) في تفسيره والطبري (٣٠/ ٢٠٥) في تفسيره مرسلاً عن سعيد بن جبير وقال ابن كثير: مرسل حسن (٨/ ٣١٢).

(٢) صحيح: ابن كثير (٨/ ٣١٢) في تفسيره، وابن أبي حاتم (١٢/ ٤٠٩) في تفسيره.

(٣) ضعيف جدًا: ابن أبي حـاتم (١٢/ ٤٠٥) في تفسـيره، وفي لباب النقول (ص٤٥٥) للسيـوطي نقل أن في الإسناد جويبرًا وهو هالك، فالإسناد مجمع بين ضعف جـويبر، وانقطاع بين الضحاك وابن عباس - رضي الله عنهما